العنوان:	نابلس في القرن التاسع عشر : دراسة مستخلصة من سجلات المحكمة الشرعية في نابلس
المؤلف الرئيسي:	الراميني، أكرم احمد سليمان
مؤلفين آخرين:	غرايبة، عبدالكريم(مشرفا)
التاريخ الميلادي:	1977
موقع:	عمان
الصفحات:	1 - 232
رقم MD:	550225
نوع المحتوى:	رسائل جامعية
الدرجة العلمية:	رسالة ماجستير
الجامعة:	الجامعة الاردنية
الكلية:	كلية الآداب
الدولة:	الاردن
قواعد المعلومات:	Dissertations
مواضيع:	تاريخ فلسطين، نابلس، القرن التاسع عشر ، الجغرافيا
رابط:	http://search.mandumah.com/Record/550225

البـــــاب الثانـــــي

- حكام نابلس في القرن التاســـع عشـــــر .
- نابلـــــس والولاة العثمانيـــون .
- الجيـش - حالـــــــة الامـــن .

حكام نابلس في القرن التاسع عشر :

لجأت الدولة العثمانية في بلاد الشام الى الاعتماد في ادارة شؤون البلاد على العائلات القوية ، والعصبيات الاقطاعية المحلية ، وعلى الاخص في المناطق الداخلية والصغيرة . وهذا ما حصل في جبل نابلس ، فقد أهلّ القرن التاسع عشر وحكام نابلس من زعمائها المحليين . أيد ذلك ما قاله الرحالة بيركهارت في لنابلس سنة ١٢٢٧/١٨١٢ : " ويحكم اهالي نابلس زعماؤهم انفسهم المفوضون من قبل الباشا بفرمانات لهذا الغرض " (١) . واما زعماء جبل نابلس في مطلع القرن التاسع عشر فهم : آل جرار في قرية صانور ، وآل عبد الهادى في قرية عرابه والشيخ قاسم الاحمد ، والشيخ صادق الريان في ناحية جماعين ، وآل طوقان في مدينة نابلس (٢) .

لم تكن العلاقات بين هذه العائلات سلمية ، بل كان التنافس بينها شديدا على السلطة في جبل نابلس ، بداية بين آل جرار ، وآل طوقان ، ثم بين آل عبد الهادى وآل طوقان . وبعبارة اخرى يمكن القول : ان الصراع كان بين المركز وبين الاطراف ، بين عائلات المدينة وعائلات الريف . وامتد هذا الصراع الى ما بعد النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، حينما قررت الدولة ان تحكم نابلس حكما مباشرا ، وعينت عليها موظفين اتراكا .

تبادل آل طوقان وآل جرار متسلمية نابلس في النصف الاول من القرن التاسع عشر ، ففي سنة ١٢١٣/١٧٩٨ كان احمد بك طوقان متسلما على نابلس من قبل احمد باشا الجزار (٣) ، الا ان الدولة العثمانية عزلته وعينت خليل بك طوقان بدلا منه (٤) ، وفي سنة ١٢١٩/١٨٠٤ عين موسى بك طوقان

---

(١) بيركهارت : رحلة في سورية الجنوبية ، ترجمة انور عرفات ، ص ٧٢ .

(٢) الشهابي : لبنان في عهد ، ق ٢ ، ص ٨٠٣ .

(٣) سجل : ٦ ص ٣٨٤ .

(٤) نفس السجل : ص ٣٣٧ .

متسلما على نابلس ثم عزل وعينت الدولة الشيخ يوسف الجرار متسلما على سنجقي نابلس وجنين (١) . لقد كان طابع السرعة في تغيير الولاة والمتسلمين مظهرا بارزا في سياسة الحكم العثماني . وتبعا لهذه السياسة كانت الدولة تعزل المتسلم ثم تعيده مرة ثانية فقد عين موسى بك طوقان متسلما على نابلس سنة ١٢١٩/ ١٨٠٤ ثم عزل ثم اعيد مرة اخرى (٢) .

استمرت زعامة آل طوقان لجبل نابلس الى سنة ١٢٣٥/ ١٨١٩ . وفي تلك السنة عزل درويش باشا والي الشام موسى بيك طوقان متسلم نابلس عن المتسلمية واعلنت الدولة خروج آل طوقان على الدولة وعينت احمد الجرار متسلما على نابلس ، ووجهت له مرسوما جاء فيه : " ان الجميع خارجون من خاطرنا لما توقع فيهم من العصاوة والظلم والتعدى عليكم وعلى البرايا " (٣) . وعنى المرسوم موسى بك طوقان اخيه رضوان بك وابن اخيه اسعد بك ، واستثنى المرسوم مصطفى بك طوقان من غضب الدولة الذى عين حاكما لنابلس سنة ١٢٣٦/ ١٨٢٠ (٤) . وقد حذر المرسوم السابق من ايواء احد من آل طوقان في اى ناحية من نواحي جبل نابلس " والذى يدخل نابلس ترموا القبض عليه وترسلوه لطرفنا والذى تقتلوه منهم فدمه مهدور (٥) .

عيّنت الدولة العثمانية بين ١٢٣٧/ ١٨٢١ - ١٢٤٤/ ١٨٢٨ متسلمين اتراكا لحكم جبل نابلس ، وهم : حسين اغا ١٢٣٧/ ١٨٢١ (٦) ، ومصطفى اغا ١٢٣٨/ ١٨٢٢ (٧) ، وسليمان اغا ١٢٣٩/ ١٨٢٣ (٨) ، وخورشيد

---

(١) سجل : ٦ ص ٣٣٧ .
(٢) نفس السجل : ص ٣٥٦ .
(٣) سجل : ٨ ص ٣٩٣ .
(٤) نفس السجل : ص ٣٩١ .
(٥) نفس السجل : ص ٣٩١ .
(٦) سجل ٨: ص ٢٤٣ .
(٧) نفس السجل : ص ٣٧٣ ، ٣٨١ .
(٨) نفس السجل : ص ٣٤٦ .

باشا ١٨٢٧/١٢٤٣ (١) . وربما كان هذا الاجراء محاولة مبكرة للحكم المباشر في نابلس ، او انه قصد به اقصاء العناصر المحلية من آل طوقان وآل جرار في جبل نابلس ، وربما ارادت الدولة وضع حد للتنافس الشديد بين هذه العائلات المتخاصمة .

عادت المنافسة بين آل طوقان وآل جرار مرة ثانية سنة ١٨٢٨/١٢٤٤ ، وذلك عندما عين عبد الله باشا والي صيدا عبد الله الجرار متسلما على نابلس ، ولكن عبد الله باشا عزل الجرار لانه رفض جمع الضرائب التي طلبها عبد الله باشا من جبل نابلس ، وادى ذلك الى حصار باشا صيدا لقلعة آل جرار في صانور . ثم رأى عبد الله باشا ان يبعد آل جرار وآل طوقان عن حكم نابلس ، فعهد بالمتسلمية سنة ١٨٣١/١٢٤٧ الى الشيخ محمد القاسم شيخ نواحي جماعين (٢) .

ومما امتاز به اهل جبل نابلس في تلك الفترة ، انه رغم التنافس والخصام الواقع بين العائلات المحلية ، فقد كانت هذه العائلات تتحد ضد الخطر الخارجي او تتحد لمقاومة حاكم جديد ، وظهر ذلك جليا في اشتراكهم ضد نابليون بونابرت الذى غزا فلسطين ١٧٩٨/١٢١٣ . وحصل ايضا حينما اتحد آل جرار وآل طوقان وآل عبد الهادى لمقاومة حصار عبد الله باشا لصانور سنة ١٨٣٠/١٢٤٦ (٣) . ولكن ما ان ينتهي ذلك الخطر حتى كانت العائلات تعود الى نزاعاتها السابقة (٤).

وذكر ان سليمان باشا والي صيدا قد دعم عبد الهادى ابا بكر وابنه حسين ولما مات عبد الهادى صار الابن مكانه ، وبميل سليمان باشا ومعاضدة المعلم حاييم اليهودى والمعلم حنا لحسين عبد الهادى عند الوالي ، تقدم حسين عبد الهادى بين وجوه لواء نابلس ، وانطلق اسمه وازدادت شهرته وصار له سمعة (٥) . وبرزت عائلة عبد الهادى بشكل كبير ابان الحكم المصرى لبلاد الشام بين ١٨٣١/١٢٤٧- ١٨٤٠/١٢٥٦ ، في حين تراجعت عائلات آل جرار وآل طوقان عن حكم نابلس (٦).

---

(١) سجل ٨ : ص ٣٤٦ .
(٢) سجل : ٩ ص ٣٩٧ ، رستم : الاصول ، م ١ ص ٤٣ .
(٣) الشهابي : لبنان في عهد ، ق ٢ ص ٨٠٨ .
(٤) Maoz , P. 113
(٥) دروزه نقلا عن ابراهيم الصباغ ، العرب والعروبة ، جـ ٢ ص ٢٦٠ .
(٦) سجل: ٩ ص ٣٨٥ ، ٣٨٩ .

وتمكنت عائلة عبد الهادى من تعزيز مركزها خلال العهد المصرى ، وعملت على تجريد معظم القادة المحليين من سلطتهم (١) ، وعلى تثبيت نفسها في حكم نابلس وفي اماكن اخرى من المنطقة (٢) .

بين اسد رستم كيف تقدمت عائلة عبد الهادى ، وكيف حصلت على متسلمية نابلس ، فقد ابقى ابراهيم باشا في بداية الامر الشيخ محمد القاسم متسلما على نابلس سنة ١٢٤٧/ ١٨٣١ " ... ومن كون محسوبنا الشيخ محمد القاسم تحقق لدينا صدق خدامته فقد ابقيناه بمدينة نابلس كما كان وبعهدته بلاد المشاريق التابعة لها " (٣) . ثم امر ابراهيم باشا - بعد مدة - بنقل الشيخ محمد القاسم من متسلمية نابلس الى متسلمية القدس ، بعد ان عزل والده الشيخ قاسم الاحمد عنها بحجة تقدمه في السن وحاجته للراحة والرفاهية ، واحال متسلمية نابلس للشيخ حسين عبد الهادى سنة ١٢٤٨/ ١٨٣٢ (٤) . ومما جاء في امر ابراهيم باشا " .. تحيطون علما انه بحسب تحويل متسلمية نابلس عن عهدة ولدنا الشيخ محمد القاسم واحالة متسلمية سنجاق القدس لعهدته اقتضى اننا فوضنا متسلمية نابلس لعهدة ولدنا الشيخ سليمان " (٥) . وحينما اندلعت الثورة ، غير الناجحة ، في نابلس وفلسطين ، ضد ابراهيم باشا ، شارك فيها آل القاسم ، فأدى ذلك الى اضعاف نفوذهم تماما في جبل نابلس . ولهذا تقدمت عائلة عبد الهادى كعائلة موالية للمصريين ، وزادت من مكانتها ونفوذها .

وعندما استعادت الدولة العثمانية بلاد الشام بعد خروج ابراهيم باشا منها سنة ١٢٥٦/ ١٨٤٠ ، استؤنفت الصراعات على السلطة بين العائلات المحلية على النمط القديم . ولكن ثمة ملاحظة هنا جديرة بالاهتمام ، وهي ان اصحاب العداوات القديمة نسوا خلافاتهم ، والذين كانوا اصدقاء بالامس اصبحوا اليوم اعداء . وظهر هذا واضحا في تحالف آل عبد الهادى وآل القاسم وساعدهم

---

(١) رستم : الاصول ، م ١ ص ٧٦ .
(٢) نفس المصدر : ص ٣٥ .
(٣) نفس المصدر : ص ٧٦ .
(٤) نفس المصدر : الاصول م ٢ ص ٨٣ .
(٥) نفس المصدر : ص ٩٤ .

آل النمر ضد آل طوقان وآل جرار الذين نسوا خصوماتهم السابقة وانضم اليهم آل ريّان .

وقد تركز الصراع الرئيسي على السلطة والحكم في جبل نابلس - في هذه الفترة - بين آل عبد الهادى وآل طوقان . وحاولت الدولة ان تكون قوة ثالثة طالبة للحكم لتأسيس سلطة مباشرة في جبل نابلس ، لكن الاتراك من حيث المبدأ كانوا اقل قوة من العناصر المحلية المتحدة ، اذ كان لدى هذه العناصر ما يسمى بالجرود (اى الجيش الشعبي) اكثر من عشرين الف مسلح ، مضافا اليهم العديد من القبائل البدوية ، فكأن قوات الحكومة لم تكن كافية بوجه عام (١) .

ابقت الدولة العثمانية عائلة عبد الهادى في حكم جبل نابلس اثر خروج المصريين ، ويمكن تفسير هذه الخطوة بأنها تمت بدافع من رغبة الاتراك في مواصلة النظام المصرى لفترة انتقالية . وقد حاولت الدولة من ناحية اخرى الاعتماد على آل طوقان بضغط من بريطانيا ، ولكنها لم تستطع السيطرة على المنطقة بواسطة آل طوقان ، او من خلال حاكم تركي ، لذا لجأت الدولة العثمانية الى عائلة عبد الهادى الفتية القوية رغم ماضيها في موالاة المصريين . وربما استطاع آل عبد الهادى الحصول على حكم جبل نابلس بواسطة الرشوة (٢) . واخيرا يمكن القول انه ليس هناك في مفهوم السياسية عداء دائم او صداقة دائمة ، كما انه ليس هناك ولاء دائم ، فالذين والوا المصريين والوا العثمانيين .

ان تعيين آل عبد الهادى في الحكم ، ايقظ شعورا بعدم الرضا والمقاومة بين العائلات المحلية المتنافسة ، وعلى الاخص عائلة طوقان . فعزلت الدولة محمود عبد الهادى ١٢٥٨/١٨٤٢ ارضاء لآل طوقان ، وعينت سليمان بك طوقان بدلا منه ثم عزلت الدولة سليمان بك وعينت اثنين من الحكام الاتراك (٣) ، ولم يتمكن هؤلاء من السيطرة على المنطقة التي تعودت على الاستقلال الذاتي فترة طويلة . فاضطرت الدولة الى ارسال الحملات العسكرية خلال السنتين التاليتين لاخماد الاضطرابات وجمع الضرائب . ورأت الدولة ضرورة اعادة سليمان بك طوقان

---

(١) Maoz , P . 113

(٢) Ibd , P . 116

(٣) لم استطع ان اتبين اسماء هؤلاء الحكام لعدم ورود ذكر لهم في سجلات المحكمة الشرعية في القرن التاسع عشر .

مرة اخرى ، لكنها عادت وعزلته سنة ١٢٦٤/ ١٨٤٧ وعينت حاكما تركيا هو عثمان بك بدلا منه (١) . وتحركت نابلس ضد الحاكم الغريب ، فأعادت الدولة سليمان بك لمنصبه للمرة الثالثة ، وظل فيه الى سنة ١٢٦٨/ ١٨٥١ (٢) . ويمكن تفسير هذه الاجراءات من قبل الدولة ، بانها محاولة ثانية لتجربة الحكم المباشر والسيطرة على انجبل ، فهي راحت بين حين واخر تعين حكاما اتراكا لمعرفة رد الفعل لدى السكان من ناحية ، ولايجاد المناخ المناسب لتنفيذ سياسة الحكم المركزى من ناحية اخرى .

تغير منصب الحكم في نابلس بين ١٢٧٠/ ١٨٥٣-١٢٧٥/ ١٨٥٨ بين ثلاثة خصوم ، وبالتحديد بين : محمود بك عبد الهادى ، وعلى بك طوقان والمبعوث التركي أمين بك (٣) . ولم ترد - في السجلات - الا اشارة من بعهد لحكم علي بك طوقان في نابلس (٤). وأشار الدباغ الى حكم على بك لنابلس سنة ١٢٧٠/ ١٨٥٣ ، نقلا عن تقرير " جيمس فن " القنصل البريطاني في القدس ، وقد زار فن نابلس وقال : " وزارنا في المدينة على بك طوقان المعين حديثا ومعه مصطفى اغا البيرقدار والشيخ نعمان " (٥) . كما اورد احسان النمر مرسوما صادرا من على بك طوقان الى احد شيوخ القرى المحليين في تلك السنة (٦).

نشب الصراع بين آل طوقان وآل عبد الهادى ، واتصف بالعنف الشديد وانضم عدد من القبائل البدوية الى كل جانب . وذكر احد الباحثين ان الدولة امتنعت عن وقف الاضطرابات بهدف القاء القبض على زعماء الفريقين (٧) . بل وانتهزت الدولة الفرصة ، وحاولت تجديد محاولتها بتجربة الحكم المباشر ، فعينت قائمقاما تركيا هو مصطفى حمدى بك سنة ١٢٧١/ ١٨٥٤ (٨) .

---

(١) سجل : ١١ ، ص ٢٥ ، ٢٦ .
(٢) Maoz , P . 116
(٣) سجل : ١٢ ، ص ١٠٤ .
(٤) سجل : ١٣ ، ق ١ ، ص ٢٥
(٥) الدباغ : ج ٢ ، ق ٢ ، ص ١٧٧ .
(٦) النمر : ج ٢ ، ص ١٨٥ ، ١٨٦ .
(٧) Maoz , P . 117
(٨) سجل : ١٢ ص ١٢٥ .

الا ان المبعوث التركي لم يتمكن من السيطرة على المنطقة لعدم كفاية القوات المسلحة الموجودة تحت امرته . وانقلب خط آل طوقان ، ونفت الدولة رؤساءهم وحليفهم الشيخ صادق الريان الى خارج البلاد (١) في حين قامت الدولة باطلاق سراح زعماء آل عبد الهادى ، وبعد فترة قصيرة عينت محمود بك عبد الهادى قائمقاما على نابلس ، وظل يحتفظ بمنصبه الى سنة ١٢٧٥/١٨٥٨ . ورأى الكاتب " ماعوز " ان محمود عبد الهادى حصل على وظيفة الحكم ، نتيجة رشوة قدمها الشيخ محمود الى اعضاء الحكومة في القدس من جهة ، ونتيجة للضعف العسكرى المتواصل في الحكومة من جهة اخرى (٢) .

ولم يتمكن العثمانيون من ادخال تغيير جذرى على الادارة المحلية في نابلس ، واخضاعها لسيطرتهم ، الا في نهاية سنة ١٢٧٥/١٨٥٨ . ويعزى هذا الى الاضمحلال التدريجي للقوى المحلية من ناحية ، والى الضغط الاوروبي الذى تبعه اضطرابات مضادة للاوروبيين في نابلس ١٢٧٢/١٨٥٥-١٢٧٣/١٨٥٦ (٣) ، من ناحية ثانية . واتخذت الدولة عددا من الخطوات العسكرية والتنظيمية الحاسمة اول مرة ، فمثلا : عزلت الدولة محمود عبد الهادى عن حكم نابلس بتهمة اشتراكه في الحرب الاهلية التي اشتدت في عهده ، وقامت باعتقاله ، وعينت يوسف ضيا بك ، الذى اشتهر بحزمه، حاكما على المنطقة سنة ١٢٧٥/١٨٥٨ (٤) . وهذه صورة الامر الصادر من مشير ايالة صيدا بعزل محمود عبد الهادى " افتخار الاكابر والاكارم المنصوب قايمقام بموجب فرمان عالي على سنجاقي نابلس وجنين عزتلو يوسف ضيا بك زيد مجده ... المهني اليكم الا انه قد صار شرف صدور فرمان عالي مضمونه السامي عزل محمود عبد الهادى عن قيمقامية سنجاقي نابلس وجنين وتوجيه واحالة القائمقامية المرموقة لعهدة يوسف ضيا بك المومي اليه " (٥) . وظهر ان عائلة عبد الهادى لم تقبل بالاجراء الجديد ، فتجمع بعضهم في قرية عرابة واعلنوا الثورة . ولم تتمكن الدولة من التغلب على جيب المقاومة هذا ، الا في سنة ١٢٧٦/١٨٧٩

---

(١) الدباغ : ج ٢ ق ٢ ص ١٦٣ .

(٢) Maaz , P: 117 .

(٣) سنتحدث عن الاضطرابات في الباب الرابع .

(٤) Maaz , P . 117 .

(٥) سجل : ١٢ ص ٢١٩ .

بمساعدة من آل طوقان وآل جرار ، حيث تمكنت الجيوش التركية من مهاجمة قرية عرابة وهدمها ، وقتلت العديد من السكان ، وقد تمكن بعضهم من الهرب عبر نهر الاردن (١) . ونشرت الدولة - قبيل قيامها بعمليتها ضد عرابة مرسوما بررت فيه الاسباب التي دفعتها الى اتخاذ هذا الاجراء ومما جاء فيه " افتخار الاكابر والاكارم ميرالان عساكر حسن بك وقيمتام لواء نابلس وجنين عزتلو يوسف ضيا بك ... تحيطون علما المهني اليكم ان محمد الحسين احد عايلة بني عبد الهادي واقرباه الذين اعتادوا على اجراء الحركات الغدرية وعلى اتلاف النفوس البشرية منذ مدة طويلة في سنجاقي نابلس وجنين مع وجود انه صار اخذ التعهدات . الا انه بناء على الحالات الغدرية التي اجروها قبل تاريخه فلاجل دفع الاحوال الردية التي ظهرت واستكمال وسائل واستراحة الاهالي قد سار سوق القوة العسكرية . وبما ان الحكومة قد شاهدت تحشد العائلة المذكورة في قرية عرابة التي هي مأواهم القديم وتأهبهم للعصاوة فهم لم يصغوا الى النصايح والتنبيهات والتهديدات العديدة التي حصلت لهم والنهاية هجموا على القوة العسكرية التي كانت وصلت قرية عنزا واظهروا العصاوة عيانا فلذلك بمقتضى القانون السلطاني بالمقابلة بالمثل التي صار اجراها ..." (٢) .
وعدد المرسوم اعمال آل عبد الهادي ، وذكر اخلالهم بالامن واشهارهم السلاح على العساكر النظامية " الذي هو اعظم درجة من العصاوة " (٣) . وتابع المرسوم قوله : " ولاجل تطهير تلك النواحي وينال السكان الامن والراحة قد تقرر تأديب وتنكيل الاشقيا" (٤) . وطلب المرسوم اعلان الامان لكل الذين تركوا اوطانهم ، والعودة اليها .

وتبع هذا الاجراء الحازم ، الذي يتمشى وسياسة الحكم المباشر للدولة العثمانية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، وعلى الاخص منذ صدور قوانين التنظيمات ، اصلاحات ادارية واجتماعية وحكم جبل نابلس من قبل موظفين اتراك كانوا عموما قادرين على حفظ النظام في المنطقة رغم اندلاع العدوات بين الجماعات المتنافسة من وقت لآخر. وانتقل الصراع المحلي على السلطة الى المجلس الاداري في نابلس حيث شكل شيوخ العائلات قوة مسيطرة كانت احيانا قادرة على تحدي السلطة العثمانية (٥) .

---

(١) Maoz, p. 118
(٢) سجل ١٢ : ص ٢٤٤ - ٢٤٥ .
(٣) نفس السجل : ص ٢٤٤ — ٢٤٥ .
(٤) نفس السجل : ص ٢٤٤ — ٢٤٥ .
(٥) Maoz, p. 118

نابلس والولاة العثمانيون :

اهتم الولاة العثمانيون في دمشق وصيدا بأمرين اساسيين في علاقاتهم بالزعماء المحليين : الاول : تأمين سلطة الدولة عليهم ، والثاني : جمع الضرائب المختلفة لا سيما اموال الميرى (١) ، ولم يهتم الولاة بضمان الرفاهية للشعب واقامة العدل بين افراده (٢) .

اظهرت المراسيم ان الوالي كان يعين مدة سنة واحدة ، وربما جددت الدولة ولايته في السنة التالية او عزلته (٣) . وحالما يتعين الوالي في منصبه ، كان يرسل صورة عن مرسوم تعيينه الى السناجق والمقاطعات التابعة لايالته او ولايته ، ويطلب من متسلمي هذه المقاطعات تلاوة المرسوم علنا وفي حفل عام على نحو ما ورد في مرسوم سليمان باشا والي الشام الى موسى بك طوقان متسلم نابلس سنة ١٢٢٦/ ١٨١١ وقال : " ... فبوصوله واطلاعكم على مضمونه تتلوه علنا على رؤوس الاشهاد ويكون ذلك معلوم العال والدون وتظهروا الافراح والسرور والبهجة والحبور ..." (٤) . وحذرت مراسيم الولاة متسلمي الالوية من مغبة مخالفة اوامرهم او الخروج عليهم ، فقد جاء في مرسوم يوسف باشا الكنج الى موسى طوقان سنة ١٢٢٤/ ١٨٠٩ " .... فبوصوله ووقوفكم على مضمونه تعملوا بموجبه وتتحاشوا مخالفته اعلموه واعتمدوه " (٥) .

لم تكن العلاقات بين جبل نابلس والولاة العثمانيين تسير على وتيرة واحدة ، بل كانت تتغير وتتأثر حسب الظروف والاحوال . لقد اعتادت نابلس على الاستقلال الذاتي ، وعدم الخضوع لحكام من خارج المنطقة ، كما اشتهر سكان جبل نابلس بشدة البأس وصعوبة المراس" وطالما اعيا ذلك الجبل ولاة عكا كالجزار وخلافه ابان تقاضي الجبايات وتنفيذ بعض الاوامر" (٦) . واعترف عبد الله باشا في

---

(١) رافق : ص ١٥٧ .
(٢) الحكيم (يوسف) : سورية والعهد العثماني . ص ١٥
(٣) سجل : ٨ ص ٤٠٢ ، ٤٠٤ .
(٤) سجل : ٧ ص ٣٨٢ .
(٥) نفس السجل : ص ٣٨٤ .
(٦) ابو شقرا (يوسف خطار) : الحركات في لبنان الي عهد المتصرفية، ص ١٧

رسالته الى محمد علي باشا بخشونة اهل نابلس ، فقال : " ... حيث احوال اهالي جبل نابلس وخشانة عريكتهم معلومة " (١) . ونقل احسان النمر عن ابراهيم الصورا قوله : " ... وبما انهم تابعون ايالة الشام واحوالهم مع ولاة الشام مشهورة والذى يريدوه من اوامره ينفذوه والذى لا يريدوه لا ينفذوه ولا يستطيع احد ان يعارضهم ولا يمانعهم " (٢) . وربما فرضت طبيعة المنطقة الجغرافية الجبلية على سكان نابلس هذا السلوك " اما الجبال فكان بعض الامراء والبكوات والمشايخ تولوا شؤونها منذ زمن طويل ، واشتهر عن هؤلاء الحكام الاستبداد والجور وكثيرا ما كانت تقوم الحروب بينهم ولطالما هب بعضهم الى الثورة وجرد سيفه لمحاربة جند الدولة " (٣).

ولذا كانت العلاقات بين نابلس والوالي تسوء اذا حاول الوالي فرض سيطرته المباشرة على نابلس ، وهذا ما حصل عندما حاول الجزار ان يحكم المنطقة بمماليكه وانصاره ، فعصى الشيخ يوسف الجرار - شيخ نابلس - وتحصن في قلعة صانور . وحاصر الجزار قلعة صانور ولكنه فشل في اخضاعها " وما اخذ منها حق ولا باطل بعد ما ضرب عليها تنابر ومدافع وما استفاد شيئا فأدركه الحج فرحل عنهم " (٤) . وروى الدكتور " ميخائيل مشاقه " حادثة طريفه وقعت للجزار بصانور قال : " ان الجزار كان يحاصر صانور وكان في السجن - سجن الجزار بعكا - مع الامير يوسف الشهابي رجل اسمه ابراهيم عزام ، وقد سجنه الجزار لا لذنب ، بل لانه فرض عليه غرامة كبيرة ، فلم يستطع دفعها ، وكان له ولد اسمه خليل في خدمة الجزار في استلام الذخاير الحربية . وامر الجزار بلغم القلعة فلما اشتعل اللغم ارتد على العسكر فقتل كثيرون منهم . فكتب خليل عزام الى ابيه في السجن يخبره بذلك بحروف اصطلاحية بينهما ، ودس الكتابة في رغيف خبز فعثر السجان عليها وارسلها للجزار ، فسلمها الى الكتاب ، فقرأها له واذا هو يبشر اباه بما حدث في صانور ويقول له ان يبشروا الامير يوسف بذلك لعله

---

(١) شبلي (انطونيوس) تقرير خطي رفعه بعبد الله باشا الى والي مصر سنة ١٨٢٠ ، ذيل تاريخ احمد باشا الجزار ، ص ٣٠٣ .

(٢) النمر : ج ٢ ص ٣٣٧ .

(٣) مؤلف مجهول : ص ٢٧ .

(٤) القارئ (رسلان بن يحيى) : الوزراء الذين حكموا دمشق ، تحقيق صلاح الدين المنجد ص ٨٨ .

يكون الوالي على عكا بعد الجزار . فلما وقف الجزار على مضمون الكتاب امر بشنق الامير يوسف والشيخ غندور وابراهيم .وولده خليل فشنقوا الاربعة" (١) .

ان الجزار الذى شن حربا على نابلس ، عاد يتودد لها ، وذلك حينما زحف نابليون على فلسطين من مصر قاصدا احتلال عكا ١٢١٣/١٧٩٨ ،فارسل الى زعماء نابلس يطلب منهم نسيان الماضي ، والعمل على ارسال المساكر والذخاير من بلادهم (٢) . واستجاب النابلسيون له ،ولمراسيم الدولة التي حثت سكان الشام على الجهاد . واشترك النابلسيون في صد الهجوم الفرنسي على عكا ، كما شاركوا في المعارك التي وقعت بين جنود الدولة العثمانية وجنود نابليون في مرج ابن عامر (٣) .

اصدرت الدولة العثمانية منشورا الى اهالي الشام ، عدد مساوىء الفرنسيين ومساوىء ثورتهم ، وبين موقفهم من الاديان ، وحث السكان على الجهاد وقال : " فالآن يا حماة الاسلام ويا كماة المسلمين ويا ابطال الحرب والضرب يا مسلمون يا موءمنون يا مقرون بالوحدانية كونوا على قلب رجل واحد وارفعوا من بينكم الشقاق وبدلوه بالحب في الله وارفعوا من بينكم الاشرار والنميمة واهل النفاق " (٤) .

وكما تودد الجزار لجبل نابلس ، تودد نابليون له ، وحاول استمالته اليه ، فبعد ان تقدم نابليون الى بلاد الشام على رأس ثلاثة عشر الف مقاتل عن طريق العريش ، احتل غزه ثم الرملة وحاصر يافا ثم دخلها عنوة (٥) ، وارتكب فيها مذبحة ضد الاسرى (٦) . وكلف نابليون احد قواده ، المدعو "" دوماس"

---

(١) مجلة المقتطف : تاريخ الجزار ، عدد ٣١ سنة ١٩٠٦ ، ص ٣١٣ ، لم اتبين اسم صاحب المقال وربما ان الكاتب هو رئيس التحرير .

(٢) سجل : ٦ ص ٣٧٨ .

(٣) نعمة الله (نوفل) : كشف اللثام عن محيا الكومة والاحكام في اقليمي مصر وبر الشام ، مخطوط ص ٢٧٣ .

(٤) ابكاريوس (عزتلو اسكندر بك) : المناقب الابراهيمية والمآثر الخديوية ص ٩ .

(٥) غريد : ص ١٨٢ ، لوتسكي : ص ٥٣ .

(٦) Barker (Edward B.B) Syria and Egypt Under The Last Five Sultans Of Turkish. Vol. IPP. 238- 239.

بالسير الى نابلس وزوده بمناشير بليغة الى شيوخها ، خيرهم بين الحرب والسلام واذا ما اختاروا السلام فعليهم ان يطردوا رجال الجزار . ولكن النابلسيين لم يستجيبوا لمحاولة نابليون (١) ، والتي قصد منها خداع اهل الشام كما خدع اهل مصر من قبل . فقد اظهر نابليون انه ليس في نيته القضاء على الاسلام ، ولا يوجد للمسلمين اصدقاء ، اخلص من الفرنسيين ومما قاله لاهالي الشام : " انني اتيت الى هذه النواحي لمجرد ان اطرد عنكم المماليك وعساكر الجزار باشا حيث ان جزار باشا قد هجم على يافا وغزه والرملة وارسل عساكره لحد المريس ففهمنا من ذلك ان قصده ان يحاربنا ونحن مستعدون لمحاربته اما انتم فما عليكم بأس من طرفنا فكونوا مستريحين في محلاتكم ويكون قضاتكم ونوابكم مشتغلين بوظائفهم " (٢) .

واشتبك العسكر النابلسي بقيادة يوسف الجرار واحمد بك الطحان (٣) . في مكان يقال له " قاقون " ، وكسر فيها العسكر النابلسي ، واحرق نابليون خمس قرى من بلاد نابلس (٤) . ووقفت جنود نابلس التي بلغت بين ٧-٨ آلاف شخص الى جانب العساكر الاسلامية الاخرى في القتال ضد قوا " كليبر " احد قادة نابليون ، في مرج ابن عامر ، وكادوا التغلب على قواته لولا ان احد اهالي الناصرة اخبر نابليون بونابرت بمحاصرة عساكر كليبر وبكثرة جنود المسلمين فتحرك نابليون لنجدته واحاط بالقوات الاسلامية واطلق عليها نيرانا كثيفة من المدافع ومن مختلف الجهات مما اربك القوات الاسلامية ، وادى الى تراجعها وافلات كليبر من الحصار . (٥) .

وهكذا استطاع نابليون السيطرة على المنطقة الممتدة من اقليم مصر جنوبا الى مرجعيون في لبنان شمالا (٦) ، باستثناء عكا التي صمدت الى ان اضطر

---

(١) كربيتس (بيير) : ابراهيم باشا ، ترجمة محمد بدران ص ٢٠٤-٢٠٥ .
(٢) العطار : ج ١ ص ٢٧٠ ، حليم (ابراهيم بك) : التحفة الحليمية في تاريخ الدولة العلية ، ص ١٨٠ .
(٣) لوكروا : ص ٢٢٩ .
(٤) الشهابي : لبنان في عهد ق ١ ص ٤٠٣ .
(٥) نعمة الله : ص ٢٣٣ .
(٦) الميتطورى (انطونيوس ابي خطار) : كتاب مختصر تاريخ جبل لبنان ، المشرق ، عدد ٤٧ سنة ١٩٥٣ ص ١٧٢ .

نابليون لرفع الحصار عنها ، والعودة الى مصر . وعدد " الجبرتي " اهم الاسباب التي ادت الى عجز الفرنسيين عن احتلال عكا وهي - كما وردت على لسان نابليون بونابرت - : " مساعدة الانجليز لعكا ، وسيطرتهم البحرية ، وقطع الاتصال بين عكا ومصر ، وخراب البلاد قرب عكا وقلة التموين وانتشار الطاعون ، واضطراب احوال الفرنسيين في مصر ، وموت بعض قواد نابليون الذين يعتمد عليهم وحاجة عكا للحصار ثلاثة او اربعة اشهر " . وبالاضافة الى ذلك فلقد كان نابليون اجنبيا وكافرا في نظر الناس (١) .

ان موقع نابلس الداخلي بين ولاية الشام شرقا وولاية صيدا شمالا جعلها تتأثر بطبيعة العلاقات بين ولاة دمشق وولاة صيدا . واوضح مثل على ذلك ، الخلاف الذى نشأ بين عبد الله باشا والي صيدا ودرويش باشا والى الشام سنة ١٢٣٧/١٨٢١ . وقد عمل عبد الله باشا على استمالة بعض مشايخ نابلس الى جانبه . وانقسم اهالي جبل نابلس الى فئتين ، ووقع بينهم القتال . وحاول درويش باشا ارسال قوة عسكرية الى بلاد نابلس بقيادة " كاخيته " (٢) فيروز باشا ولما علم عبد الله باشا بتحرك فيروز باشا بقواته ، جمع عساكره في الحال وارسلها بقيادة سر عسكره ابراهيم اغا الى جسر " بنات يعقوب " ، وارسل فرقة اخرى الى " جسر المجامع " ، ولم يكن طريق للعبور من ديار دمشق الى بلاد نابلس الا على هذين الجسرين ، واستطاع عبد الله باشا كسر عساكر درويش باشا وتتبعهما الى اراضي الزرقاء (٣) .

وقفت الدولة العثمانية في هذا النزاع الى جانب درويش باشا ، فنزعت عبد الله باشا عن ولاية صيدا ، واحالتها مع طرابلس وغزه ويافا والرملة الى درويش باشا (٤) .

---

(١) الجبرتي (عبد الرحمن) : عجائب الاثار في التراجم والاخبار ، ج ٣ ص ٧١-٧٢ .

(٢) الكاخيا هي نفس كتخدا وهو الوكيل عن الباشا . الخورى : ص ٣٨٨ .

(٣) الشهابي : لبنان في عهد ، ق ٢ ، ص ٧١١-٧١٢ ، شلبي ، (ميشال) نزوح الامير بشير الى مصر سنة ١٨٢٢ ، المشرق عدد ٤٥ سنة ١٩٥١ ، ص ٢١٣

(٤) سجل : ٨ ص ٤٢٤ .

وامرت والي حلب بمساعدة درويش باشا في قتال والي صيدا المعزول وشعر عبد الله باشا بالخذلان فاسرع نحو محمد علي باشا والي مصر ، واوفد اليه الامير بشير الشهابي الذى كان صديقا لعبد الله باشا . وسافر الشهابي الى مصر وسعى باشا مصر لدى الباب العالي لاستحصال العفو عن وزير عكا حتى ناله (١) .

كان جمع الضرائب لا سيما " الميرى " من جبل نابلس ، اهم قضية اثرت على العلاقات بين الولاة العثمانيين والسلطات المحلية في نابلس . ودعت معظم المراسيم المرسلة من الولاة لزعماء نابلس الى الاهتمام بالاموال الاميرية وضرورة ارسالها لطرف خزينة الوالي دون تهاون او اهمال . ورد ذلك في مرسوم يوسف باشا الكنج الى متسلم نابلس سنة ١٢٢٣/١٨٠٨ " ... فالمراد بوقوفكم على مرسومنا هذا تبادروا بجمع الذخاير واموال الميرية وتوريدها تحت يد كاتب السنجق " (٢) . وورد نفس هذا المعنى في مرسوم درويش باشا الى موسى طوقان متسلم نابلس " ... ومهما كان مرتب لطرف خزينتنا توردوه ولا يبدى منكم بذلك تهاون ولا قصور " (٣) .

واذا لم يستطع الوالي جمع مال الميرى من نابلس ، تخلى عنه الى خزينة الدولة ، وعندئذ كان الاوردى الهمايوني (الجيش الامبراطورى) الموجود في نواحي نابلس يقوم بتحصيل المبلغ (٤) . كانت نابلس تثور وتتمرد على الوالي اذا لاحظت منه شدة او اصرارا على جمع مزيد من الاموال . نقل احسان النمر عن ابراهيم العورا قوله : " وهكذا يبقى العزيز بحال الاستقامة ماشيا معهم حسب الترتيب بدون زياده ، واذا نظروا منه شيئا مخالفا للرسوم المعتادة فلا يقبلون ولا يطيعون ، واذا لاحظوا انه يريد يمشيه غصبا ينفروا عنه ويرجعوا الى محلاتهم ويعطوا العصاوة وجملة مرات رجعوا باوردهم غضبا وما اكتفوا بل ارسلوا من طرفهم من يسرق الاوردى وينهبه (٥) .

---

(١) الاسود : (عزتلو ابراهيم بك) كتاب ذخائر لبنان ص ٣٠٣ . نوار (عبد العزيز) وثائق اساسية من تاريخ لبنان الحديث ص ٢٦٠ .

(٢) سجل : ٦ ص ٣١٤ .

(٣) سجل : ٨ ص ٣٧٤ .

(٤) سجل : ٦ ص ٣٥٧ ، ٣٧٤ .

(٥) النمر : ج ٢ ص ٣٣٧ .

ولذا اضطر ولاة الشام اللجوء في بعض الاحيان الى ولاة صيدا لاجل تحصيل الاموال المطلوبة .

ان دراسة علاقة عبد الله باشا بجبل نابلس لاوضح دليل على ما تقدم ، كانت نابلس في سنة ١٢٣٦/ ١٨٢٠ جزءاً من ولاية دمشق ، ولما لم يستطع درويش باشا والي الشام تحصيل المال المطلوب من نابلس وقدره ستمائة كيس (١) ، طلب الى عبد الله باشا ارسال " مال الدورة " من نابلس التابعة لولايته ، وعبّر عبد الله باشا عن موافقته على ذلك قائلا : " .... فمراعاة لحقوق الجوار ورغبة بخدامات الدولة العلية وتسهيلا لمصلحة الحج الشريف ساعدناه بمطلوبه ووجهنا له ذلك نقدا من خزينتنا ، ولوقتنا هذا غالب المال باقي في محلاته ما ورد لنا " (٢) . والارجح ان عبد الله باشا دفع المال المطلوب من جبل نابلس مقابل ان تضم له نابلس للسعي في جمع مبلغ اكبر ، اذ " تعهد عبد الله باشا برفع عائداتها الى الف كيس اذا اوكل امر نابلس اليه " (٣) . وظهر ان الدولة العثمانية استجابت لرغبة عبد الله باشا فأحالت اليه نابلس وانعمت عليه بولاية القدس " على ان يورد الى الدولة المال المرتب لطريق الحاج حسب المعتاد " (٤) . ولما فشل عبد الله باشا في تحقيق اطماعه ما اراد ، جرد على نابلس جيشا ووقعت احداث صانور التي فصلتها اكثر المصادر التاريخية (٥) .

---

(١) سنتحدث عن النقود في الباب القادم .

(٢) الشهابي : لبنان في عهد ، ق ٢ ص ٨٠٠ .

(٣) العطار : ج ١ ص ١٥٢ .

(٤) الشهابي : لبنان في عهد ، ق ٢ ص ٨٠٠ .

(٥) نعمة الله : ص ٤٦٤ . ابو شقرا : ص ١٧ . البيطار (الشيخ عبد الرزاق) : حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر ، ج ١ ، ص ١٦ ، شبلي : ص ٣٠٦ . الدبس : ج ٨ ص ٦٧٤ . الاسود : ص ٣١٢ . الشدياق (طنوس) : اخبار الاعيان في جبل لبنان ، ج ٢ ص ١٧٠ . فائز (خليل همام) ابو سمرا غانم او البطل اللبناني ، ص ٢٥٠ . عبود ص ٦١ . رستم : بشير ص ٤٣ . باز (رستم) : مذكرات رستم باز ص ٢٨ .

وانفرد ابو شقـرا برواية حول احداث صانور فرأى انها وقعت بتحريض مباشر من محمـد علي باشـا والي مصـر . ومما قالـه ابو شقـرا : " استسلم اللبنانيـون لولاية الامـير بشير وخمد سعير حركتهم ، فكان ذلك قرة عين لمحمد علي باشـا الذى كان يحسب الف حساب للبنانيين وقيامهم سدا حصينا دون ما يتوخاه مـن الفتح العاجل ، ويروعه رسوخ قدمي طود هم وشموخ انفسهم . ولم يبق عقب ذلـك في بر الشام بلد تخشى مقاومته ويستصعب اخذه فيكون حجر عثرة في سبيل التقـدم والنجاح الا جبل نابلس المشهور عن اهله شدة البأس وصعوبة المراس لا سيمـا امراؤه آل جرار وآل طوقان فانهم كانوا على جانب عظيم من البسالة والفروسية . وطالما اعيا ذلك الجبل ولاة عكا كالجزار وخلافه ابان تقاضي الجبايات وتنفيذ بعض الاوامر ، فكانت منعته وحالته المحكي عنها اشبه بقذى في عين محمد علي، فلم يـزل مترصدا فرصة تسنح له رمي ذلك الطور وهو رابض في مصـر ببلايا ونوائب لا يتسنى له ابلاؤه بمثلها فيما لو شن عليه بنفسه غارة شعواء لاخضاد شوكته وتقليل شبانه حـتى بدت له الفرصة السانحة وجرت رياح القدر بما اشتهته سفن آماله . ذلك انه حـدث سنة ١٢٤٦ ان شق بنو جرار وطوقان عصا الطاعة ممتنعين عن تأدية الاموال الميريـة التي كانوا يجنونها من الاهلين ، ويقدون شيئا منها لصاحب عكا . فخابر عبد الله باشا محمد علي في ذلك فكتب اليه بوجوب الزحف الى الخوارج واصلائهم حربا ترد هم الى الطاعة والخضوع ، وكتب في ذلك الى الامير بشير ايضا موجبا عليه ملاقاة عبد اللـه باشا بجيش عرمرم الى نابلس فامتثل الاثنان لحربه " (١) .

وما ان انعمت الدولة العثمانية على عبد الله باشا بجبل نابلس والقدس بالاضافة الى صيدا سنة ١٢٤٦/ ١٨٣٠ ، حتى ارسل الى المشايخ المتولين مقاطعات جبل نابلس ان يحضروا اليه للاتفاق معهم على كيفية ارسال الاموال الاميرية واخذ عبد اللـه باشـا عليهم العهود والمواثيـق الا يخرجـوا عليه ، ثم اعادهـم الـى محلاتهم (٢) . وفي اثناء عودتهم هاجم بعضهم حسين اغـا ، متسلم عبد الله باشا في قرية جنين (٣) ، فغضب عبد الله باشا وامـر بتوجيـه العساكـر

---

(١) ابو شقـرا : ص ١٧ .
(٢) الشهابي : لبنان في عهد ، ق ٢ ص ٨٠٠ .
(٣) نفس المصدر ، ق ٢ ص ٨٠١

بصحبة اسعد بك طوقان . ولما وصل اسعد طوقان ومعه جند الدولة الى قرية عرابة - حصن آل عبد الهادى - ، وكان بين اسعد وبين حسين عبد الهادى خلاف سابق ، حرض اسعد طوقان عسكر الدولة لينهبوا قرية عرابة ، واطمعهم في غلال وارزاق حسين عبد الهادى (١) . غضب عبد الله باشا على اسعد طوقان فترك الاخير عسكر الدولة ، وذهب الى مدينة نابلس واخذ يعمل على تشجيع آل جرار في صانور لاعلان التمرد والعصيان على باشا صيدا . وسافر حسين عبد الهادى الى عكا للاعراب عن تذمره مما فعله عسكر الدولة بقريته وارزاقه ، فانتهز عبد الله باشا فرصة مجيئه والقى القبض عليه ، لان ذلك يتمشى مع سياسته الرامية في السيطرة على جبل نابلس الذى اضطربت نواحيه .

تقدمت عساكر الباشا المكونة من اخلاط من المرتزقة الى ناحية جماعين المضطربة وقبضت على الشيخ قاسم الاحمد ، وارسلته الى عكا . وارسل عبد الله باشا اوامره الى قواته بضرورة التحرك الى آل جرار الموجودين في قلعة صانور . وكانت هذه القلعة " ذات متانة وليس لها نظير وكانت دايما نصب عين والي الايالة (٢). ووصفها ابو شقرا بقوله : " كانت راسخة القواعد والجدران ، رحيبة الفناء غنية بالماء ، حشد فيها الجرار المؤن والذخائر" (٣) .

رفض الجرار تسليم القلعة واغلق ابوابها فأمر عبد الله باشا بحصارها وارسل المدافع والقنابل ، ووجه جنودا الى ناحية جماعين التي ازدادت اضطراباتها اثر اعتقال شيخها محمد القاسم الاحمد ، واستطاع الاهالي في جماعين قتل عشرين نفرا من جنود والي صيدا (٤) . ولما لم يستطع عبد الله باشا احتلال القلعة ارسل الى صديقه الامير بشير الشهابي حاكم جبل لبنان ، وطلب منه ارسال الفي رجل مجهزين بالسلاح الكامل للمشاركة في حصار صانور ، والاستيلاء عليها .

---

(١) الشهابي : لبنان في عهد ، ق ٢ ص ٨٥١ .
(٢) باز : ص ٢٨ .
(٣) ابو شقرا : ص ١٨ .
(٤) الشهابي : لبنان في عهد ق ٢ ص ٨٠٢ .

واستجاب الامير بشير لطلبه وسار الامير بالعساكر الى عكا ، حيث رحب به عبد الله باشا ، واغدق عليه الهدايا (١) . ولما عزم الامير بشير على التحرك نحو جبل نابلس قال له عبد الله باشا : " اني دعوتك الى هذه المهمة وان لم اقدر على اخذ قلعة صانور التزم اني اضع جوز فرودى في صدرى واقتل حالي " (٢) . فأجابه الامير : " كن مرتاح وعبدك لا بد اني اواموت قدام القلعة ام اتمم امرك ، اني لا أفتأ اهجم عليها حتى ادخلها " (٣) .

سار الامير بشير بعساكره عن طريق الناصرة حتى وصل الى جنين فصانور وهناك التقى بعسكر عبد الله باشا وبقائدهم ابراهيم كتخدا ، ورتب الاثنان أمر حصار القلعة . وبدأت جند الامير بشير وقوات عبد الله باشا تطلق مدافعها على القلعة بشكل كثيف " حتى انه كان يضرب في كل نهار ما ينوف عن ٢٥٠ مدفع ونحو ٥٠ قنبره الى ان هدم عالي اكثر ابراجها " (٤) . وحاول المحاصرون في داخل القلعة الهجوم ليلا على المحاصرين ، وخاصة رجال المدفعية فأغاروا بشجاعة نادرة وشاركتهم نساؤهم في هذا الهجوم ، اذ كانت " تغط اللحف بالزيت وتشعلها ثم ترميها الى خارج القلعة ليتمكن رجال القلعة من رؤية العسكر المعادى وضربهم بالبارود " (٥) . ودامت المعركة ثماني ساعات ، وكاد جنود نابلس يستولون على المدافع ، الا ان رجال الامير بشير ردوهم الى داخل القلعة (٦) .

هبّ سكان جبل نابلس لنجدة آل جرار في صانور ، وتجمع البعض من اهالي الجبل ومعهم ٣٠٠ خيال ، واتوا الى قرية " عجه " و " الفندقومية " قريبا من العساكر المهاجمة .

---

(١) الشهابي : ص ٨٠٢ . الدبس : ج ٨ ، ص ٦٤٧ .
(٢) الشهابي : لبنان في عهد ق ٢ ، ص ٨٠٢ .
(٣) نفس المصدر : ص ٨٠٣ ، نعمة الله : ص ٤٦٤ .
(٤) نفس المصدر : ص ٨٠٤ .
(٥) نفس المصدر : ص ٨٠٥ .
(٦) نفس المصدر : ص ٨٠٥ .

واراد عسكر نابلس منع رجال الامير بشير من الوصول الى المياه في القريتين المذكورتين ، فحصل اشتباك بين الطرفين ، تراجعت فيها عساكر نابلس الى قرية " عجه " وتبعهم رجال الامير ودخلوا القرية ثم حرقوها . وجرت معارك اخرى في قرية " كفر راعي " وفعل عسكر الامير بها مثلما فعلوا بقرية عجه . وادرك الامير بشير صعوبة الاستيلاء على القلعة ولذا لجأ الى استعمال اساليب الشدة والبطش والارهاب مع القرى المجاورة مثل " الفندقومية " و" السيلة " و" الرام " و" العطاره " فنهبها وحرقها (١) .

ادرك عبد الله باشا ان تملك القلعة ستطال وتكلف اموالا طائلة صرفها على العسكر ، هذا عدا عن خسائره في الارواح . ولذا لجأ الى مهادنة النابلسيين ، فاجتمع بمن عنده من شيوخ جبل نابلس واخبرهم انه تنازل عن طلب المال . وحينما علم عبد الله باشا باخبار انتصارات الامير بشير ، عاد وتراجع عن قراره ، وقال للشيوخ الذين عنده : " انا من حلمي وشفقتي على الرعايا تنازلت معكم ولكن البان ان اهالي بلادكم لا تنفع بهم الرحمة لان بعد حضوركم الى قدامي يأتوا الى عسكر ولدى الامير بشير ويحاربوه ظنا منهم انهم يربحون " (٢) . ثم خوفهم بقوة الامير بشير ورجاله ، وذكرهم بوقائعه مع ولاة الشام . اثر هذا القول في نفس الشيوخ ، فتعهدوا للوالي بان يدفعوا له المال الذى اراد ، وانهم على استعداد للعودة الى جبل نابلس والعمل على تسليم القلعة وانهاء الحرب . وقد سر عبد الله باشا لما سمع ، فخلع عليهم الهدايا والخلع وارسل كتب الامان لاسعد بك طوقان وللشيخ مصطفى البرقاوى ، ولكي يضمن عبد الله باشا تنفيذ وعود شيوخ جبل نابلس ، ابقى اولادهم رهائن عنده .

اخذ شيوخ نابلس وهم : الشيخ حسين عبد الهادى ، والشيخ قاسم الاحمد ، والشيخ عيسى البرقاوى ، واسعد بك طوقان ، في اجراء مفاوضات الصلح بين آل جرار وبين الامير بشير . وبعدما اخذوا الامان من الامير بشير لال جرار وعيالهم واموالهم وموافقة عبد الله باشا على ذلك ، ترك آل جرار صانور وسكنوا في قرى " جبع " و" طلوزه " و" عصيره " (٣) .

---

(١) الشهابي : لبنان في عهد ق ٢ ص ٨٠٧ . الدبس : ج ٨ ، ص ٦٤٧ .

(٢) نفس المصدر : ص ٨٠٨ .

(٣) نفس المصدر : ص ٨١٠ .

تسلم الامير بشير قلعة صانور ، وارسل عبد الله باشا امرا بهدم القلعة من الاساس" وان لا يبقى فيها حجر على حجر وتهدم وتعطل الابار" (١).
وفعل الامير بشير بما أمر به وزير عكا ، وكتب اليه يبشره بانتصاره ، واستيلاءه على قلعة صانور وقال : " وبعد الاستيلاء على القلعة المنحوسة امرنا بهدمها للاساس وحرث ارضها في السكة والفدان حتى صارت بلقعا كأنها ما كانت بالوجود" (٢).

ومع ان عبد الله باشا استطاع بمساعدة من الامير بشير الشهابي وباستخدام اساليب من الخداع والشدة وخرق القرى في الاستيلاء على قلعة صانور بعد حصار دام ثلاثة اشهر (٣)، الا انه لم يستطع فرض السيطرة على نابلس.

وفي سنة ١٢٤٧/ ١٨٣١ تقدم ابراهيم باشا لاحتلال الشام (٤). سارت الحملة المصرية طريق البر الى خان يونس وغزة ويافا ، واندفع ابراهيم باشا نحو بيت المقدس فاحتلها وتقدم الى عكا وضرب عليها الحصار في جمادى الاولى ١٢٤٧/ تشرين ثاني ١٨٣١ ، الى ان استولى عليها في ذى الحجة ١٢٤٧/ايار ١٨٣٢ (٥).
وهنا نقطة تستحق الاشارة وهي : لماذا فشل نابليون في احتلال عكا ؟ بينما نجح

---

(١) الشهابي : لبنان في عهد ق ٢ ص ٨١١
(٢) نفس المصدر : ص ٨١١ .
(٣) نعمة الله : ص ٤٦٤ . الدبس ، ج ٨ ، ص ٦٤٧ .
(٤) كان السبب المباشر لحملة ابراهيم باشا على الشام الخلاف الذى نشأ بين عبد الله باشا والى عكا وبين محمد علي باشا والي مصر بسبب ايواء عبد الله باشا الفلاحين المصريين الهاربين من كثرة الضرائب ونظام التجنيد الذى فرضه محمد علي في مصر . وهناك دوافع اخرى وحول هذا الموضوع يمكن الرجوع الى :
Rustem : The Royal Archives Of Egypt And The Origin Of The Egyptian Expedition To Syria , PP. 17-95.
الرافعي (عبد الرحمن) عصر محمد علي ، ص ٢٤٥ - ٢٤٩ ، طوسون ، (عمر) : صفحة من تاريخ مصر في عهد محمد علي ، ص ٢٠١ ، فائز : ص ٢٠٧ ، زيادة : ص ٥٩ ، لوتسكي : ص ١٢٤ - ١٣١ ، نوار : ص ٢٦٠ ، كربتيس : ص ١٥٤ ، رستم - محمد علي باشا والسلطان محمود الثاني . المقتطف ، عدد ٦٦ سنة ١٩٢٥ ص ٥٣٩ - ٥٤٥ .
(٥) الرافعي : ص ٥٥ .

ابراهيم باشا في ذلك . وقد تقدّم ذكر عوامل فشل نابليون في السيطرة على عكـــا ، ونستذكر هنا ان نابليون كان في نظر الناس اجنبيا غازيا وكافرا ، ولذا حاربه الناس وقاوموه بشدة . ولكن الموقف اختلف حينما قدم ابراهيم باشا ، فلم يعتبره الناس اجنبيا الى الحد الذى اعتبر به نابليون . وسيطر ابراهيم باشا على معظم فلسطين دون قتال ، وقدمت كثير من المدن طاعتها للفاتح الجديد كيافا ونابلس (١) .

ومن ناحية اخرى فان نابليون لم يصبر طويلا على حصار عكا ، ولم ينتظر حتى تسقط ، بينما استمر ابراهيم باشا يحاصر عكا طيلة سبعة اشهر متصلة ، رغم خسائره الجسيمة (٢) ، الى أن يئس المدافعون عن المدينة . ولقد كان فرح محمد علـــي باشا عظيما باحتلال ولده لعكا ، اذ اصدر في تلك الفترة امرا " بضرب المدافع بالقلاع والبنادر ثلاث دفعات كل يوم كالاعياد ، ومدة ثلاثة ايام اعلانا للافراح والسرور بالنصر العزيز والفتح المبين الذى حصل لابنه ابراهيم باشا سرعسكر لاستيلائه على عكا" (٣) .

وبينما كان ابراهيم باشا يحاصر عكا ، وفد عليه شيوخ جبل نابلس وهم : الشيخ حسين عبد الهادى ، والشيخ قاسم الاحمد ، والشيخ عبد الله الجرار ، وقدموا له طاعة بلادهم ، (٤) واتضح ذلك من قول ابراهيم باشا لمشايخ نابلس :" ... تحيطون علما من حيث انكم قدمتم لنا الطاعة ودخلت بلادكم في حوزة حكومتنا فقد صار واجب علينا حفظها " (٥) . سعى هؤلاء الزعماء الى تثبيت نفوذهم في مناطقهـــم عن طريق تقربهم للعهد الجديد ، لا سيما ان طاعتهم لاى حاكم لا تعني عندهم شيئا ، فهم على استعداد للثورة عليه ، اذا حاول التدخل في شؤونـــهم الداخلية ، او اذا فرض عليهم مفاهيم جديدة لم يعتادوا عليها . وقد أحسّ آل طوقان ان زعامـــة نابلس قد أفلتت من ايديهم فسافر اسعد طوقان الى القاهرة لمقابلة محمد علي باشا طلبا للحماية والعطف على عائلته (٦) . وبالفعل فقد اوصى محمد علي باشا ولده

---

(١) رستم : بشير ، ص ٦٢

(٢) غانم (ابراهيم ابو سمرا) : المصريون في سورية ولبنان قبل مائة عام . المشرق ، عدد ٣٠ سنة ١٩٣٢ ، ص ٣٦٠ .

(٣) سامي باشا (امين) تقويم النيل ، ج ٢ ، ص ٣٩١ .

(٤) رستم : بشير ، ص ٦٢ .

(٥) سجل ٩ : ص ٣٩٦ .

(٦) الدباغ : نقلا عن المحفوظات الملكية - بيان بوثائق الشام ، ج ٢ ، ق ٢ ، ص ١٦٠ — ١٦١ .

ابراهيم باشا بزعيم آل طوقان ". واستدعى ابراهيم باشا اسعد طوقان بعد عودته من مصر ، وعرض عليه متسلمية بيروت ، الا ان اسعد بيك رفض ، ورأى في ذلك ابعادا له عن جبل نابلس ، وأصرّ على ان يكون متسلما على بلاد نابلس . رفض ابراهيم باشا ، وبتأثير شيوخ نابلس الذين وفدوا عليه ، طلب اسعد طوقان . وتحسبا من ان يقوم أسعد بيك باثارة المتاعب والقلاقل في وجه ابراهيم باشا ، قام الفاتح المصرى بالقبض عليه وارساله الى مصر ، وألحق به بعد بضعة أشهر اخاه مصطفى بيك طوقان (١).

أبقى ابراهيم باشا الشيخ محمد القاسم متسلما على مدينة نابلس ، كما كان ، وعيّن الشيخ حسين عبد الهادى متسلما على جنين ، وأحال بلاد المشاريق الى عهدة الشيخ عبد الله الجرار ، ومنطقة بني صعب الى الشيخ يوسف الجيوسي ، والشيخ عبد الوهاب الجيوسي (٢).

واندلعت سنة ١٢٥٠ / ١٨٣٤ ثورة عارمة في نابلس ، وفي انحاء اخرى من فلسطين بسبب اجراءات ابراهيم باشا الجديدة . لقد كانت الاسباب التي أدت الى ثورة نابلس متعددة ، فهناك اسباب عامة ادت الى التذمر من الحكم المصرى في معظم المناطق . وهناك اسباب خاصة بالوضع المحلي في نابلس :

اولا : الاسباب العامة :

١- شرع ابراهيم باشا بعد سنوات من احتلاله بلاد الشام ، بفرض الخدمة العسكرية " ولم يكن السكان في هذه البلاد معتادين على ذلك " (٣) . وقد أثارت هذه المسألة سكان جبل نابلس ، وكافة المناطق الاخرى . ذكر البيطار : " وطلب ابراهيم باشا من جبل نابلس التجنيد فخرجوا عن الطاعة " (٤) . وأرسل وجوه صفد كتابا الى الامير بشير الشهابي صديق المصريين طلبوا منه ان يتوسط لدى ابراهيم باشا ،

---

(١) الدباغ : نقلا عن المحفوظات الملكية - بيان بوثائق الشام ، ج ٢ ، ق ٢ ، ص ١٦٠ — ١٦١ .

(٢) سجل ٩ : ص ٣٩٦ . رستم : الاصول : م ١ ، ص ٧٦

(٣) ابكاريوس : ص ١٠١ ،

(٤) البيطار : ج ١ ، ص ٢٦

ومما جاء في كتابهم " . . . غير خافي سعادتكم الاثقال التي حاملتها اهالي صفد من ورشات وسخر ومطاليب زايده وهذا كله لم يكف بل بدهم منا عساكر نظام ، وغير خافي ان الولد مهجة الكبد ، ولم احد يفوت ولده ، ولو فات نفسه فلزم الناس عافت ارواحها . ويا سعادة الامير انتم اصحاب النخوه والفضل ونحن اعرضنا لجنابكم الواقع ، وكذلك حررنا الى الفئة التي لا تنس للعهد المروءة وهم اهالي ومشايخ نابلس الشيخ قاسم الاحمد ، والشيخ احمد الجرار ، والشيخ محمود عبد الهادى والشيخ عيسى البرقاوى ولزم اعراضه لكي تمدونا بالجواب الشافي اطال الله بقاكم . في ١٨ صفر / ١٢٥٠ (١) .

والسيء في نظام الجندية الذى امر به ابراهيم باشا : خلوه من القواعد والانظمة ، وتحديد الوقت وجهة القتال (٢) . وقد تشددت حكومة محمد علي في الشام بامر التجنيد ، لان الدولة العثمانية كانت تحشد جنودها على مقربة من حدود الشام الشمالية (٣) . وكان محمد علي يرى ضرورة اشتراك سكان البلاد في القتال الى جانب القوات المصرية تمشيا مع مفهوم الدولة الجديد ، الذى أراد محمد علي باشا وولده ابراهيم تطبيقه في بلاد الشام . لكن الشاميين عموما لم يشعروا ان حكومة محمد علي في بلاد الشام هي حكومتهم ، وهم لا ينظرون بارتياح الى حرب ليست لهم فيها مصلحة ، كما ان مثل هذا المفهوم كان لا يزال بعيدا وغريبا .

٢- خطا ابراهيم باشا خطوة اخرى في اجراءاته الجديدة في بلاد الشام حينما عزم على جمع السلاح من الناس . وما ان بدأ يجمع السلاح حتى ثارت القبائل " ورأى الناس ان ترك ارواحهم خير لهم وأجل وأشرف من ترك بنادقهم فكان لزاما على ابراهيم باشا تجريدهم بالقوة " (٤) .

٣- ارسل محمد علي باشا اوامره الى ولده ابراهيم بضرورة فرض ضريبة الرؤوس على جميع الرجال البالغين من سن الثامنة عشر الى سن الستين . ودعيت هذه الضريبة الجديدة بضريبة " الفردة " او الفرضه ، وقد تراوحت ما بين ١٥-٥٠٠ قرش في كل سنة (٥) .

---

(١) العابدى : من تاريخنا ، المجموعة الاولى ص ٢١٠ .
(٢) زيادة : ص ٧٨ .
(٣) رستم : نقلا عن سليمان ابو عز الدين ، صفحة جديدة من تاريخ الثورة الدرزية ، المشرق ، عدد ٣٥ سنة ١٩٣٧ ، ص ٤٧٨ .
(٤) رستم : بشير ، ص ٩٩ ، حتي ص ٥١٣ .
(٥) البيطار : ج ١ ، ص ٢٥ ، الشطي (محمد جميل) : روض البشر في اعيان القرن الثالث عشر ، ص ١٣ .

وجبيت هذه الضريبة من جميع الناس ، فاهاجت الخواطر (١) . وبالاضافة الى هذه الضريبة ، فرض ابراهيم باشا " ضريبة الشونه " وهي عبارة عن تكليف الاهالي بتقديم حاجات الجيش من الحبوب والسمن والزيت ، ونقلها من بلدتهم الى اقرب شونة عسكرية اما على دوابهم او على دواب يستأجرونها بمالهم (٢) .

٤- طلب محمد علي باشا الى ولده ابراهيم بضرورة احتكار تجارة الحرير في البلاد الشامية ، واحتكار الحبوب . وكانت كل هذه الاجراءات قد طبقها محمد علي باشا في القطر المصرى (٣) .

٥- نظر الناس في بلاد الشام الى ابراهيم باشا وحكومته على انها مخالفة لقواعد الدين الاسلامي ، فقد رأوا معه القواد والعمال من الافرنج ومن المسيحيين من اهل البلاد (٤) ، كما انه " قدّم العيسوية على المحمدية " (٥) ، وقالوا عنه : انه نصراني يتظاهر بالاسلام (٦) ، و " أذل اهل العلم والشرف والاحترام وأعز الاسافل والطغاة واللئام ، واستولى العسكر المصرى على اكثر المساجد والمدارس والتكايا ، ومنعوا المصلين من دخولها ، وجعلوها لسكناهم ولدوابهم " (٧) .
وهكذا فقد كان الرأى العام الاسلامي في فلسطين غير محبذ لحكم ابراهيم باشا ، حتى ان احد الناس صعد على مئذنة المنبر في احد الجوامع في نابلس وصاح بصوت جهير قائلا : " ألم يعد للدين الاسلامي وجود ، وهل هو مات ؟ يجب على كل انسان يحب النبي صلى الله عليه وسلم ، ان يتقلد السلاح ضد الرجل الذى لا دين له وهو الكافر ابراهيم باشا " (٨) .

---

(١) غانم : المصريون في سورية ولبنان ، المشرق ، ٣٠ ، ص ٣٦٤ .
(٢) نفس المصدر : ص ٣٦٤ .
(٣) رستم : صفحة جديدة ، المشرق ، ٣٥ ، ص ٤٧٨ .
(٤) موءلف مجهول : ص ٦٩ .
(٥) الشطي : ص ١٣ .
(٦) عبود : ص ٧١ .
(٧) البيطار : ج ١ ص ٢٥ .
(٨) الدباغ : نقلا عن المحفوظات الملكية والثورة في فلسطين ، ج ٢ ، ق ٢ ص ١٧٣ .

واستفادت الدولة العثمانية من هذا الوضع فحرضت الناس على الثورة ضد ابراهيم باشا ، واعلنت انها سترسل جنودها . فكان لذلك اثره بين الاهالي والزعماء . (١)

ثانيا : الاسباب الخاصة :

تعددت الاسباب المحلية الخاصة بالوضع في نابلس ، والتي عملت على اندلاع الثورة في جبل نابلس وهذه الاسباب هي :

١- عمل ابراهيم باشا على ازالة نفوذ المشايخ والروساء واصحاب الاقطاعات مثل : آل طوقان وآل القاسم وآل جرار في جبل نابلس ، وابي غوش في جبل القدس " ومعقله قرية العنب على طريق القدس " (٢) . وآل ماضي في " اجزم " . وقد أخذت هذه الزعامات المحلية تتحين الفرصة للثورة على الحكم المصرى (٣) .

٢- تنافس العائلات المحلية على السلطة في جبل نابلس ، وقد تقربت عائلة عبد الهادى من الحكم المصرى ، واستطاعت الحصول على امر من محمد شريف باشا (٤) بتنحية الشيخ قاسم الاحمد عن متسلمية القدس ، وتحويلها الى عهدة ولده محمد القاسم (٥) . وبهذا شغرت متسلمية نابلس ، فاحالها الحكمدار الى عهدة الشيخ سليمان الحسين العبد الهادى . فثارت ثائرة آل القاسم ، وشعروا أن كرامتهم قد مسّت بنزع متسلمية نابلس منهم . وأخذ آل القاسم يبثون روح التمرد والعصيان وعقدوا سنة ١٢٥٠/ ١٨٣٤ اجتماعا في قرية " بيت وزن " حضره اكثر شيوخ البلاد الساخطين على الحكم المصرى ومن بينهم : الشيخ عبد الله الجرار والشيخ عيسى البرقاوى والشيخ ناصر المنصور والشيخ عيسى القدومي . واتفق هؤلاء الشيوخ على التمرد ضد ابراهيم باشا ، ما عدا الشيخ القدومي ، فقد نصح زملاءه بعدم اللجوء الى العنف ، وحذا حذوه احمد أغا النمر (٦) .

---

(١) دروزه : نقلا عن سليمان ابوعز الدين ، العرب ج ٢ ، ص ٢٧٦ .

(٢) النصولي (انيس زكريا) : اسباب النهضة العربية في القرن التاسع عشر ص ٨ .

(٣) العارف (عارف) : المفصل في تاريخ القدس ، ج ١ ص ٢٧٦ .
العطار : ج ١ ص ١٧٢ . مشاقه (ميخائيل) : تاريخ محمد علي باشا ؛ المقتطف ، عدد ٣٠ سنة ١٩٠٥ ، ص ٩٠٢ .

(٤) هو كتخدا محمد علي باشا وقريبه ، عينه محمد علي باشا حكمدار ، (حاكما عاما) لبر الشام سنة ١٢٤٨/ ١٨٣٢ . سامي باشا ج ٢ ، ص ٤٠٩ .

(٥) سجل ٩ : ص ٣٩٠ .

(٦) رستم : بشير ، ص ١٢١ .

٣- وسخط آل جرار على ابراهيم باشا ، وذلك نتيجة اهانة وجهها ابراهيم باشا الى احمد قاسم الجرار ، فبينما كان الشيخ احمد قاسم راكبا على مهر يلاعبه كأنه شاب ، اعتبر ذلك ابراهيم باشا منه خفة ، وقال موجها له الكلام : " آمل أن يكون اولادكم اكثر أدبا منكم " . واغتاظ احمد الجرار ولكنه كظم غيظه ، وأعد محاولة لاغتياله في نابلس ، فدعاه الى مصبنته ، وأمر رجاله أن يطبرحوه في الزيت الغالي " (١) . وربما علم حسين عبد الهادى - صديق المصريين - بتدبير أحمد قاسم الجرار فحذر ابراهيم باشا منه ، ولذا فشلت حيلة أحمد قاسم ، وفرّ برجاله الى القدس (٢) .

أدت هذه العوامل الخاصة والعامة مجتمعة الى اندلاع الثورة في انحاء نابلس . نقل دروزة عن سليمان ابو عز الدين قوله : " دارت المفاوضات بين آل أبي غوش وزعماء نابلس بتوحيد الكلمة على رفض مطاليب ابراهيم باشا للتجنيد وجمع السلاح وضريبة الفردة ، فأسرع ابراهيم باشا الى القدس ودعا الشيوخ والحكام الى اجتماع ، وابلغهم اوامر ابيه ، وسألهم عن موقفهم فأجابوا : انهم لا يعارضون في احتكار الحكومة للحرير ، ولكنهم يعارضون اشد المعارضة نزع السلاح وتجنيد الشبان في الجيش . وانهم لقاء ذلك على استعداد لدفع الضريبة ضعفين ، كما يقدمون بعض اولاد المشايخ رهائن لضمان طاعتهم واخلاصهم . غير ان ابراهيم باشا أبى ان يتهاون في تنفيذ اوامر ابيه ، فاستمهلوه مدة يراجعون قومهم وعشيرتهم وانفض الاجتماع على غير طائل " (٣) . وعاد ابراهيم باشا الى يافا ينظر جواب الزعماء والشيوخ ، لكن انتشار وباء الكوليرا في تلك الجهات فرض على ابراهيم باشا مغادرة يافا الى القدس (٤) .

بدأت الثورة بين البدو بجوار البحر الميت ، وتبعهم سكان جبل نابلس وتولى الشيخ قاسم الاحمد قيادة الثوار ، وانضم آل أبي غوش الى الثورة . وكتب ابراهيم باشا الى والده يخبره بما وقع ، وبيّن له أن ما جرى انما يهدف الى التخلص من التجنيد ، وأشار الى عدم أهمية الحركة (٥) .

---

(١) عبود : ص ٧١ .
(٢) نفس المصدر ص ٧١ .
(٣) دروزه : العرب ، ج ٢ ، ص ٢٧٦ .
(٤) الرافعي : ص ٣٠٣ .
(٥) رستم : بشير ، ص ١٢٣ .

هاجم الثوار " بقيادة ناصر المنصور " ابراهيم باشا ، ولكن ابراهيم باشا تغلب عليه وعلى رجاله . وجاءت نجدة لابراهيم باشا من دمشق بقيادة مصطفى بك ، فكمن لها النابلسيون في مضايق عجلون وبددوها (١) . وعمت الثورة البلاد بأسرها من صفد الى غزة ، وحاصر الثوار ابراهيم باشا نفسه في منطقة القدس ، وكادوا يقضون عليه (٢) . طلب ابراهيم باشا من والده ارسال الامدادات العسكرية ، وشرح له في رسالة ثانية سوء موقفه وقال : " وانسدت الطرق والمسالك في القدس ونابلس وغزة " (٣) . وعندئذ عزم محمد علي على المسير بنفسه وقال : " قد تهيأت العزيمة الى يافا " (٤) . وحاول ابراهيم باشا في تلك الاثناء كسب الوقت الى حين وصول والده ، فأظهر الموادعة وقبل مفاوضة الثوار ، وأعلن أنه تخلى عن ضريبة الفردة وأوقف التجنيد ، وتعهد له الثوار مقابل ذلك بتقديم ١٥٠ غرّارة من القمح (٥) ، ولم يفك الثوار الحصار عن ابراهيم باشا الّا بعد مقابلة الشيخ قاسم الاحمد لمحمد علي باشا والي مصر الذى وصل يافا . وقد طلب الشيخ قاسم تحقيق المطاليب الاتية :

اعفاء الاهالي من الخدمة العسكرية ، واعلان العفو العام ، والامتناع عن احتكار الحبوب ، والغاء ضريبة الفردة ، واعادة الضرائب الى ما كانت عليه زمن عبد الله باشا . وقبل محمد علي هذه المطاليب ، فعاد الشيخ قاسم الاحمد ورفع الحصار عن المصريين (٦) . وقد سفه البيطار تصرف الشيخ قاسم الاحمد لقبوله الاتفاق مع الباشا المصرى ، وعدّ ذلك " من سوء رأيه وجهله " (٧) .

سافر ابراهيم الى يافا لمقابلة والده الذى وصل اليها في صيف ١٢٥٠/ ١٨٣٤ ، وعاد - في نفس الوقت - الشيخ قاسم الاحمد من القدس الى نابلس ،

---

(١) غانم : المصريون في سورية ولبنان ، المشرق ، ٣٠ ص ٤٥١ .

(٢) العطار : ج ١ ص ١٧٢ ، لوتسكي : ص ١٣٥ ، مشاقه : تاريخ محمد علي ، المقتطف ، ٣٠ ، ص ٩٠٢ .

(٣) رستم : الاصول ، م٢ ، ص ١١١ .

(٤) نفس المصدر : ص ١١١ .

(٥) الغراره : مكيال دمشقي للحنطه ويتألف من ١٢ كيل او من ٧٢ مد ، ووزنها ٢٠٤٫٥ كغم قمح . بينما غرارة القدس ٦١٣٫٥ كغم . هنتس (فالتر) المكاييل والاوزان الاسلاميه وما يعادلها في النظام المترى ، ترجمة كامل العسلي ، ص ٦٤ .

(٦) لامنس (الاب) ابراهيم باشا في سورية المشرق عدد ٢٧/ ١٩٢٩ ، ص ٩٢٠ .

(٧) البيطار : ج ١ ، ص ٢٦ .

وقد اعتقد ان ابراهيم باشا لن يقوى على محاربته . واغتر ثوار نابلس بقوتهم ، فعندما جاء رجال ابراهيم باشا لجمع القمح المتفق عليه ردهم سكان نابلس وقالوا : " ليس لدينا سوى الرصاص والبارود " (١) . ولذا تحرك ابراهيم باشا من يافا على رأس قوة جديدة بلغت ستة عشر الف جندى ، واتبع هذه المرة اسلوبا جديدا في معاملة النابلسيين ، فاستخدم سياسة الشدة والارهاب ، وحرق القرى تماما مثلما فعل الامير بشير الشهابي من قبل عندما حاصر صانور . وأغلب الظن ان ذلك تم بايحاء من الامير خليل بن الامير بشير ، وكان قد حضر الى عكا بناء على دعوة محمد علي باشا لوالده الامير بشير بضرورة ارسال نجدات عسكرية . واشترك الامير خليل الى جانب ابراهيم باشا في محاربة الثورة النابلسية (٢) .

دخل ابراهيم باشا قرية " الطيبة " ثم حرقها وانتقل الى قرية " قاقون " وحرقها ايضا، ثم اتى الى قرية " زيتا " "عتيل " . وفي زيتا ضرب الثوار ففروا هاربين واعتصموا بقرية " دير الغصون " فتبعهم ابراهيم باشا واقتحم مراكزهم مشيا على الاقدام لوعورة مسالكها . وانتقل الثوار وزعماؤهم " قاسم الاحمد ، عبد الله الجرار ، عيسى البرقاوى ، وناصر المنصور " من دير الغصون الى نابلس (٣) . وأرسل محمد علي باشا من يافا الى سليمان الحسين العبد الهادى وكيل مدير ولاية صيدا ، كتابا اخبره فيه بانتصار عساكر ولده ابراهيم باشا على الثوار في قرية الدير وقال : " ... قبل يومين عرّفناكم عن انتصار عساكرنا المنصورة تحت لواء ولدنا السر عسكر على اشقيا نابلس في قرية الدير ، وأرسلنا لكم صورة التحريرات الواردة من ولدنا بهذا الخصوص ، فبتاريخ ١١ ربيع الاول حضر لنا تحريرات ثانية من سعادة المشار اليه تتضمن حلول ركابه بالعساكر الظافرة في مدينة نابلس وأن الاشقيا قاسم الاحمد وعبد الله الجرار ، وعيسى البرقاوى وناصر المنصور بعد حرابة الدير وتشتت الجموع توجهوا الى نابلس ومن نابلوس اخذوا اولادهم وفروا هاربين وسعادته اوقع عليهم الارصاد ليقبض عليهم وأن كافة مشايخ وأهالي قرايا نابلوس افواجا افواجا يسترحموا الامان وأعطي لهم فاقتضى افادتكم " (٤) .

---

(١) رستم : بشير ، ص ١٢٥ .
(٢) نفس المصدر : ص ١٢٥ .
(٣) لجنة من الادباء : لبنان مباحث علمية واجتماعية ج ١ ، ص ٣٧٣ .
(٤) رستم : الاصول م ٢ ، ص ١١٦ .

وبعد أن اطمأن محمد علي باشا على الوضع العسكري بانتصار ابراهيم باشا في موقعة دير الفصون ، عزم العودة الى مصر ، وكتب الى سليمان حسين عبد الهادي وكيل مدير ولاية صيدا :" ... ومن فضله تعالى انتهت هذه المصلحة على خير وبمشيئة الباري صممنا على العودة الى الاسكندرية بهذين اليومين(١)".

دخل ابراهيم باشا نابلس في صيف ١٢٥٠ / ١٨٣٤ ، وتقبل طاعة سكانها وسكان قراها ثم عزم على اللحاق بالثوار ، الذين فروا الى جبل الخليل ، لكن ابراهيم باشا أراد تجنب الصدام مع الثوار في القدس حتى لا يتكرر ما حصل له في المرة الاولى . سعى ابراهيم باشا الى استمالة جبر ابي غوش ، فاخرجه من السجن واعاده الى سابق نفوذه ، وعيّن احد ابنائه متسلما على القدس (٢) . وقد ضمن ابراهيم باشا بهذا الاجراء سلامة مؤخرته في طريق سيره نحو الخليل من ناحيه ، وتفكيك وحدة الثورة بين جبلي نابلس والقدس من ناحية أخرى . وهذا ما كان فعله ابراهيم باشا في حربه مع الوهابيين في الحجاز (٣) ، وما فعله عبد الله باشا مع شيوخ نابلس من قبل . وعن دور ابي غوش في اضعاف ثورة نابلس قال كنفليك : " لقد كان تمرد نابلس اعنف ما صادف ابراهيم باشا ، فعلى الرغم من اخماده الثورة بشدة لكنه لم يحز على طاعتهم ورضوخهم لحكمه ، الّا بمساعدة احد الاقطاعيين الذى أطلق من سجنه واسمه ابو غوش ، فذهب فورا الى جبال بلاده وأخذ يختلق المعاذير ويدبر المكايد ليصطاد بها عصاة الجبال . ولقد اتقن عمله بالحيلة والخديعة فمكن ابراهيم باشا من استئصال شأفة العصاة وتمزيقهم ، فكافأه على ذلك بتعيينه حاكما على القدس(٤)" ، وأضاف كنفليك الذى تحدث كشاهد عيان " وقد حصل هذا عندما كنت في يافا ولم أقم بزيارته كما يقضي الواجب عند وصولي القدس التي كان يحكمها ، لاني كنت املك غليونا جميلا من الكهرمان ، ولما سمع به ابو غوش ارسل لي رسالة مهذبة ، يعرض فيها انه يبتاع الغليون باغلى من ثمنه ولكني رفضت" (٥) .

---

(١) رستم : الاصول ، م ٢ ، ص ١١٦ .
(٢) الرافعي : ص ٣٠٥ .
(٣) نفس المصدر : ص ٣٠٤ .
(٤) كنفليك : رحلة كنفليك الى المشرق ، ١٨٣٥/١٨٣٤ ، ترجمة محمود العابدي ، ص ١٠٩ ،
(٥) نفس المصدر : ص ١٠٩ .

سار ابراهيم باشا من القدس الى الخليل ، فتصدى له اهلها ، ثم تحصنوا بها ، وارسل ابراهيم باشا الى سكان الخليل ثلاث مرات طلب منهم اعلان طاعتهم له ، ولما كان جوابهم في كل مرة " انهم ليسوا طايعين وما عندهم الآ رصاص وبارود " (١) أمر ابراهيم باشا جنده في التوجه الى الخليل وقبل الوصول الى البلدة بنحو ٩ كم ، التقى مع الثوار في معركة دامية استمرت ثلاث ساعات ، انتصر فيها ابراهيم باشا على جموع اهل الخليل ودخل البلدة ، وأمر باباحتها ، فكان أن نهبت البلدة وقتل من سكانها قرابة ستمائة نفس ، وأسر مثل ذلك من رجالها ، وأرسلهم الى عكا (٢) . وكتب ابراهيم باشا الى عارف آغا متسلم صيدا يطلعه على نتائج انتصاراته فقال : " قدوة الاماجد متسلم صيدا حالا عارف آغا يوم الاحد ٢٨ ربيع الاول سنة ١٢٥٠ تحرك ركابنا السعيد من القدس الشريف بالاوردى المنصور وعزمنا على التوجه الى الخليل وفي ٢٩ قبل وصولنا المدينة بساعة كان الاشقيا اهالي الخليل مجموعين بسور البلد للمقاتلة وبعد القتال انهزم الاشقيا هاربين لغرب المدينة ، ثم دخلوا المدينة وحاصروا في البيوت وهجمنا بعساكرنا وصار القتال مقدار نصف ساعة وضبطنا المدينة وظفرت عساكرنا وقتلوا منهم الذى قتلوه ومسكو منهم جملة انفار بالحيا والذى انوجد منهم يصلح للجهادية الحقناه بالعسكرية والذى لم يصلح تركناه " (٣) .

غادر ابراهيم باشا الخليل ، واتجه الى الكرك حيث التجأ اليها الثوار ، فمر ابراهيم باشا بغور الاردن وبلدة " الطفيلة " وما أن أطل على الكرك حتى قام عربانها وأهاليها الى قتاله ، لكن ابراهيم باشا دخلها عنوة بعد خسارة كبيرة في الارواح في جانبه ، ثم اعمل النار فيها . وقد شرح ذلك في رسالة ثانية الى متسلم صيدا فقال : " ... انه في يوم الاربعاء ١٤ الحاضر - ربيع الاخر - حمل ركابنا السعيد بالاوردو المنصور الى الكرك واهالي الكرك تجمعوا فيها ... وحرقنا قرينة الكرك بالنار وقطعنا اشجارها حتى لا يعود يسكنها احد وكذلك القرايا الذى في

---

(١) الدباغ : نقلا عن احد كتاب الحكومة الدمشقيين ، ج ٢ ، ق ٢ ، ص ١١١-١١٢ .

(٢) نفس المصدر : ص ١١١-١١٢ .

(٣) رستم : الاصول : م ٢ ، ص ١٢٥-١٢٦ .

اطراف الكرك اعطيناهم تربيتهم"(١) الختم سلام على ابراهيم"(٢) .

خرج الثوار النابلسيون من الكرك الى السلط (الصلت) وتبعهم ابراهيم باشا فخرج عليه في الطريق بنو صخر ، فهزمهم وحاصرهم في قرية "زيزياء" ثم استسلموا لقلة الماء ودخل ابراهيم باشا القرية ودمرها (٣) . وتقدم الى السلط ودخلها دون مقاومة . اما قاسم الاحمد ورجاله فقد لجأوا الى قبيلة " عنزه " فقبض عليهم شيخها دوخي السمير ، وارسلهم الى ابراهيم باشا ، فأمر الحاكم المصرى بقتل زعماء الثورة في دمشق ، وقطع رؤوس اولادهم في عكا والقدس .

استمر الحكم المصرى في بلاد الشام قرابة تسع سنين ، وفي سنة ١٢٥٦ / ١٨٤٠ اجبرت الدول الاوروبية الكبرى - لا سيما بريطانيا (٤) بالتعاون مع الدولة العثمانية - محمد علي باشا على سحب قواته من بلاد الشام واعادتها الى مصر . " وارتفع منها بنوع اعجوبة وما جاء بفكر احد ينتهي الحال هكذا" (٥) . وشعرت نابلس بقرب انتهاء الحكم المصرى من البلاد ، واخذ بعض سكانها يتعاونون مع الدولة العثمانية كما فعل احمد اغا النمر الذى اظهر فرحه وسروره بانتهاء الحكم المصرى .

---

(١) رستم : الاصول م ٢ ، ص ١٢٩ .

(٢) كان ابراهيم باشا يوقع على مناشيره اولا " ابراهيم مير ميران سرعسكر مصر " ثم " الحاج ابراهيم والي جدة والحبشة وسرعسكر حالا " ثم " سرعسكر عربستان " وكان ختمه بحجم الريال المجيدى ووسطه مربع فيه " سلام على ابراهيم " . كرامه (بطرس) : شذرات عن ابراهيم باشا ، المقتطف، عدد ٦٨ ، سنة ١٩٢٦ ، ص ٥٣ .

(٣) بيك باشا : ص ١٨٠ .

(٤) عن تدخل الدول الكبرى في مجريات الحملة المصرية يمكن الرجوع الى :
مؤلف مجهول : ص ٤٦ ، الدبس : ج ٨ ، ص ٦٥٢-٦٦١ .
لوتسكي : ص ١٤١ - ١٤٥ ، ابكاريوس : ص ١٢٥ .

(٥) الدمشقي : تاريخ حوادث ، المشرق ، ١٥ ، ص ٣٢٢ .

واظهر فرمانا من الدولة العثمانية يقضي بتعيينه ميرالايا (١) على اربعة سناجق هي القدس ونابلس وغزة وجنين (٢) .

تحدث المؤرخون المحدثون عن الحكم المصرى في الشام ، وعرضوا محاسنه ومساوئه (٣) . وقد اورد اسد رستم نقلا عن سليمان ابوعز الدين " ان من مزايا حكومة محمد علي في الشام العمل على اقرار الامن في البلاد ، وانقاذها من الفوضى التي جعلت ارواح العباد واموالهم وارزاقهم تحت رحمة الاقوياء والاشقياء . وعمل ابراهيم باشا على تنشيط الزراعة والتجارة . اما ما تذمر منه الناس فكان احتكار الحرير في البلاد السورية ، وتحصيل ضريبة الفردة اى ضريبة الروؤس ، والتجنيد العام ونزع السلاح من ايدى اهل البلاد " (٤) . وللدكتور غرايبه تحليل طريف للمفاهيم الجديدة التي حاول ابراهيم باشا ارساءها في بلاد الشام ، ولماذا عمل الناس على زوال الحكم المصرى ، فقال " رغم قصر العهد المصرى فقد ارسيت قواعد جديدة للحكم لم تكن معروفة من قبل ، اذ انهى ابراهيم باشا الحكم السطحي وبدأت الدولة التدخل في شوءون التعليم والقضاء والمواصلات والاحتساب والصحة العامة ، وازدادت دقة وحزما في تنفيذ اوامرها . وسيطرت بشكل فعال على التجارة ولا سيما الخارجية ، وتدخلت في تنظيم الزراعة والصناعة ، ووجهتها في خدمة الدولة . ولم يعد التجنيد وجباية الاموال امورا شكلية ، يمكن التهرب منهما بالرشوة او بالمقاومة . وأحس الشعب كله ان الحكومة غول مخيف يلتهم كل شيء". ورأى المسلمون في حكم ابراهيم باشا حكما غير شرعي لان ابراهيم باشا وأباه ثائران على السلطان امير الموءمنين ، كما استثار ابراهيم المسلمين حينما منح المسيحيين حريات واسعة ، والغى القيود على ازيائهم المميزة ، واباح للافرنج دخول مدينة دمشق راكبين ، وسمح لهم بتأسيس قنصليات فيها . كذلك استاء المسلمون من ابراهيم باشا الذى اعتمد على رجال من المسيحيين من امثال بطرس كرامة وحنا البحرى . فلا عجب اذا رحب المسلمون عامة بزوال حكم ابراهيم وبعودة العثمانيين ،

---

(١) الميرالاى : وظيفة عسكرية عهد الى صاحبها الاشراف على جمع الفرسان والاقطاعيين زمن الحرب ، ومنح الميرالاى علما وطبلا . غرايبه : سورية ، ص ٤٤ .

(٢) رستم : الاصول م ٥ ، ص ٦٠ - ٦١ .

(٣) الدمشقي : تاريخ حوادث ، المشرق ، ١٥ ، ص ٣٢٢ .
ابكاريوس : ص ١٠١ ، رستم : بشير : ص ١٠٦ .
كرد علي : خطط الشام ، ج ٢ ، ص ٥٧ ، غرايبه : سورية ، ص ٢٧ - ٣٩ .
زيادة : ص ٧٤ فما بعد ، نوار : ص ٣١٣ - ٤٠٧ .

(٤) رستم : صفحة جديدة ، المشرق ، ٣٥ ، ص ٤٤٧ .

واعتقدوا ان الحكم العثماني سيكون كما عهدوه من قبل رخوا وسهلا " (١) .

عانت نابلس بعد خروج المصريين من بلاد الشام ١٢٥٦/ ١٨٤٠ ، وعودة الدولة العثمانية ، فترة من الاضطرابات المحلية ، سواء بين العائلات المحلية المتنافسة على السلطة،او نتيجة مقاومة السكان لاجراءات الدولة الجديدة التي اقتضتها التنظيمات العثمانية . وادركت الدولة ان السيطرة التامة على المنطقة لا تكون الا باضعاف نفوذ العائلات المحلية القوية ،ولذا قررت الدولة ضرب آل عبد الهادي ، وهدمت معقلهم في قرية عرّابة ، كما تقدم ، وبذا هيمنت الدولة العثمانية على العائلات واضعفت نفوذها ، واصبحت نابلس مقاطعة يحكمها موظفون اتراك . ولم ترد - بعد ذلك - اخبار عن مقاومة او حركات محلية في نابلس مناوئة للولاة العثمانيين او للسلطات العثمانية .

---

(١) غوايبة : سورية ، ص ٥٨ .

الجيــــش - حالـــة الامـــن :

وجدت ثلاثة اقسام رئيسية في الجيش العثماني هي :(١)

١- الجنود الاقطاعيون المعروفون بالسباهية (اى الفرسان) ، وكـــان هوءلاء الجنود يمنحون اقطاعات من اراضي الدولة مقابل تلبيتهم نداء الحـــرب، مع تقديم عدد مناسب من الجند على نفقتهم الخاصة (٢).

٢- الانكشارية : وكان يتم تجنيد هم عن طريق خمس الغنائم اولا بواسطـــة " الدفشرمة " (٣) واطلق على المجموع " قابي قولارى " اى عبيد الباب او السلطـــان . ودعي قائد الانكشارية " بالاغا " (٤). انقسمت الانكشارية الى فرق (اورطات) ، وعاش الجنود في ثكنات خاصة ، وحظر عليهم الزواج حتى يحالوا على التقاعد (٥).

٣- واما النوع الثالث فهم : اخلاط شتى من العساكر المرتزقة ممن استخدمهم ولاة الشام كالمغاربة وهم مشاة ، والاكراد والتركمان وهم فرسان ، واطلق عليهـــم احيانا اسم " اللاوند الدلاتية او الدلاة " (٦).

عرفت نابلس - في مطلع القرن التاسع عشر - النوع الاول من هذه العساكـــر ، فكان هناك الجنود الاقطاعيون (السباهيون) . وقد دعي رئيس السباهية فـــي اللواء " الاى بك " (٧) ، او ميرالاى . وواجب الميرالاى جمع العساكر الاقطاعيـــة اذا طلب منه ذلك . اتضح ذلك من مرسوم الدولة الى حسن اغا النمر سنـــــة ١٢١٤/١٧٩٩ ... بوصول توقيعنا ان والي سيواس رجب باشا قد صـــار

---

(١) موءلف مجهول : ص ٦٨ — ٧٣ .
(٢) غرايبة : سورية ، ص ٤٨ .
(٣) الدفشرمة : هي عملية جمع الشبان ، وهي مصطلح عثماني لتجنيد اولاد النصارى لملء وظائف الانكشارية ولاشغال الخدمة في القصر والادارة .
Menage ; E.I :Devshirme ; Vol 2 : PP -210 -213 .
(٤) الاغا : قائد اللواء . زيدان (جرجي) تاريخ التمدن الاسلامي ج ١ ، ص ٦٤
(٥) موءلف مجهول : ص ٦٨ — ٧٣ .
(٦) عوض : ص ١٣٩ ، كرد علي : خطط ، ج ٥ ، ص ٢٨ .
(٧) جب وبوون : ج ١ ، ص ٧٣ ، ٧٤ .

تعيينه قائدا للعساكر . وقد أمرنا جميع العساكر والجرود الموجودة في ايالة الشام ان تنضوي تحت لوائه بما في ذلك الزعماء واصحاب التيمار خلال خمسة ايام الى عشرة ايام، فعليك يا بك الاى نابلس ان تبذل مجهودك للانضمام بجموعك من الزعماء والسباهية وان تستنفر الجرود والمتطوعين من البلاد حسب العادة تحت لوائك وتسير بهم وتنضم الى القائد المذكور بكل اخلاص وبدون تردد " (١) . وعمل الميرالاى على مساعدة المتسلم في تحصيل الاموال المطلوبة منه الى الدولة (٢) . ووقعت عليه مهمة تحضير الاشياء اللازمة لقافلة الحج من القرب والاكياس والحبال والحمير والزبيب والقطين ، كما كان يحافظ على الامن ، ويؤدب العصاة اذا ما اعتدوا على قوافل الجيش (٣) .

عين ميرالاى نابلس في النصف الاول من القرن التاسع عشر - على الاغلب - من السكان المحليين . وقد اختصت عائلة آل النمر تقريبا بهذا المنصب دون غيرها من بقية العائلات ، فقد ورد في السجلات اسماء : حسن آغا النمر سنة ١٢٢٦/ ١٨١١ (٤) ، وموسى آغا النمر سنة ١٢٣٧/ ١٨٢١ (٥) ، واحمد آغا النمر سنة ١٢٤٦/ ١٨٣٠ . كما وردت الاسماء المحلية التالية ضمن الاى نابلس : تميمي ، خماش ، محمد بك عسقلان ، محمود شرى ، تفاحة ، عبد الله الاسطه ، الحاج عبد الله الخاروف وكنعان ابي زعرور (٦) . واصبحت وظيفة الميرالاية ، في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، تركية شأنها في ذلك شأن بقية وظائف الادارة والحكم ، تمشيا مع سياسة الدولة في الحكم المباشر .

---

(١) النمر : ج ٢ ، ص ١٩٣ .
(٢) سجل ٨ ، ص ٣٩٨ .
(٣) النمر : ج ٢ ، ص ١٩٣ .
(٤) سجل ٧ ، ص ٣٧٠ .
(٥) سجل ٨ ، ص ٣٧٠ .
(٦) النمر : ج ٢ ، ص ٩٧ .

كان للميرالاى مركب خاص ، يتقدمه الطبالون وحوله السباهية من ذوى البلطات والحربات (١) . وحدث ان عهدت الدولة لميرالاى نابلس بوظيفة الحكم في اللواء ، فعينته " مأمورا للضبطية " حيث قام بمهام المتسلم . فقد عينت الدولة شكرى بك ميرالاى العساكر مأمور ضبطية في نابلس سنة ١٢٥٨/ ١٨٤٢ (٢) وذلك بعد خروج المصريين من بلاد الشام . وظهر ان هذا الاجراء استهدف فرض النظام ريثما تستتب الامور . وكانت المرة الثانية سنة ١٢٦٣/ ١٨٤٤ حينما عينت الدولة عثمان بك ميرالاى العساكر قائمقاما على سنجقي نابلس وجنين (٣) وذلك اثر الاضطرابات التي نشأت بين العائلات المحلية المتخاصمة ، وعلى الاخص بين آل عبد الهادى ، وآل طوقان ، ولاجل تثبيت جمع الضرائب .

ورد ذكر الميرالاى في مراسيم الدولة والولاة المرسلة الى حكام نابلس في القرن التاسع عشر ، وخاطبته المراسيم بلفظ " مفاخر اقرانهم ميرالاى " (٤) ، و " قدوة الاقران ميرالاى " (٥) .

لم يكن في نابلس جنود عثمانيون في النصف الاول من القرن التاسع عشر ، وحدث مرة ان ارسل درويش باشا والي الشام عسكرا الى نابلس ، فطلب اهالي نابلس من عبد الله باشا والي صيدا " ان يسعفهم باخراج العسكر من بلادهم وانهم لا يطيقون عسكر الشام في بلادهم ، وقد عمل عبد الله باشا على ذلك ، فاتهمه درويش باشا بالتدخل في ايالته والطمع في محلاته " (٦) . ولما جاءت اوامر السلطان محمود الثاني ١٢٢٢/١٨٠٨ — ١٢٥٥/ ١٨٣٩ ، بابادة الانكشارية ، لم يكن في نابلس الا انكشارى واحد قتل في مغارة في جبل عيبال (٧) .

---

(١) النمر : ج ٢ ، ص ٢٠٩ .
(٢) سجل ١٠ ، ص ٢٩٢ .
(٣) سجل ١١ ، ص ٢٥ ، ٢٦ .
(٤) سجل ٨ ، ص ٣٧٣ .
(٥) نفس السجل ، ص ٣٧٠ .
(٦) شبلي : ص ٣٠٧ .
(٧) النمر : ج ٢ ، ص ٢١٠ .

اما المرتزقة فلم يكن لهم وجود ايضا في نابلس سوى في فترة قصيرة ، وذلك عند ما عزلت الدولة موسى طوقان عن متسلمية نابلس ، وأمرت باخراج آل طوقان من المنطقة ولاجل حفظ الامن في المدينة ارسلت الدولة "السكمان" (١) برئاسة بهلوان آغا سنة ١٢٣٥/١٨١٩ ، وتذمرت المدينة من وجودهم وظهر هذا التذمر على لسان الهيئة الاسلامية المتمثلة في النائب والمفتي والنقيب ، فقد ارسل هؤلاء عريضة الى والي الشام ، ابدوا فيها قلقهم من وجود السكمان في مدينتهم لا سيما في دار موسى طوقان بالقرب من سكن النساء . ورد الوالي عليهم ردا ايجابيا ، فأبعد السكمان عن سكن النساء (٢) . ولم تبين السجلات ماذا حصل لهؤلاء المرتزقة ، والراجح انهم سحبوا من المنطقة لعدم ورود اى اشارة عنهم فيما بعد .

اعتادت الدولة ان تطلب من نابلس ومن غيرها متطوعين للحرب كلما دعت الحاجة (٣) ، واعطت لهم في بعض الاحيان معاش شهرين (٤) . فقد دعت الدولة - على سبيل المثال - سكان نابلس الى ارسال المتطوعين حينما غزا نابليون مصر ١٢١٣/١٧٩٨ ، وحثت السكان على الجهاد ، واستشارت عاطفتهم الدينية ، وبيّنت لهم ان الجهاد فرض عين عليهم لقرب بلادهم من العدو ، كما ان طاعة السلطان واجب ديني . وطلبت اليهم ارسال ثلاثة آلاف جندى ، الف وخمسمائة من نفس نابلس ، والف وخمسمائة من خارجها . وعلى هؤلاء الجنود الانضمام الى الاوردى الهمايوني بقيادة نصوح باشا . ووعدهم السلطان مقابل ذلك بالعفو عن مال ميرى سنة كاملة ، شريطة الاسراع بارسال العساكر (٥) ، ولم يستجب السكان لنداءات السلطان واوامره ، فأرسلت الدولة مرسوما آخر الى نابلس وجنين ، طلبت منهم ارسال الفين بدلا من ثلاثة آلاف (٦) فطلب اهالي نابلس من السلطان العفو عن الف وانهم

---

(١) السكمان : او السكبان : كلمة فارسية من مقطعين هي سك بان و معناها حامي الكلب ، وهم جند كان اصل عملهم قيادة الكلاب امام الكبراء حين يسيرون الي الصيد ، ثم اصبح هذا الاسم يطلق على كل من يعمل جنديا بالارتزاق . برغوث : ص ٣٠٣ .

(٢) سجل ٨ ، ص ٣٩٢ .

(٣) سجل ٦ ، ص ٣١٨ ، سجل ١٢ ، ص ١٠٨ ، ١٠٩ .

(٤) سجل ١٢ ، ص ١٠٩ .

(٥) سجل ٦ ، ص ٣٥٨ .

(٦) نفس السجل ، ص ٣٥٨ .

على استعداد لتقديم الف نفر " ... واعتذرتم انه الفين نفر اخراجها متعسر بسبب الزراعة والحراثة وسألتمو العفو عن الف نفر وانكم تخرجوا الفا " (١) ولكن نابلس لم تنفذ ما تعهدت به ، فخيرتهم الدولة بين ارسال الف نفر ، او دفع مبلغ من المال مقداره ١١٠ الف قرش بدلا من ذلك " ... والى الآن ما حضر من الف نفر واحد والحالة هذه في مدة كم يوم قيام الاوردى الهمايوني سريعا وعوضا عن الالف نفر المطلوب تدفعوا ١١٠ الف قرش لاعداد الف نفر عسكرى والمطلوب ترسلوا ٤٠ الف في اول شوال وتكميل المبلغ الى منتصف شوال من سنة ١٢١٤ " (٢) . وهددتهم الدولة من الخلاف والتهاون ، واستمر سكان نابلس على رفضهم ، وعدم تنفيذ اى من المطلبين ، فأرسل الحاج يوسف ضيا قائد الجيش سنة ١٢١٥/١٨٠٠ تهديداته اليهم وقال :

" ... ولاجل ذلك امرنا العساكر المجاهدين لاجل نظام احوالكم الفاسدة وتصفية افهامكم الجامدة" (٣) . ولم يمنعه من تنفيذ تهديداته الا خليل بك طوقان متسلم نابلس ، الذى رجاه وقبل القائد رجاه ، بعد ما صرف خليل بك طوقان على عساكر الدولة من جيبه مبلغا جسيما وصل الى ٢٦٨٠٠ قرش (٤) . ولا بد هنا من وقفة لبيان اسباب رفض سكان نابلس اطاعة اوامر الدولة المتكررة بشأن التطوع للحرب ضد نابليون في مصر . في الواقع ان هناك اكثر من سبب منها : كان الناس في نابلس - وفي غيرها - في منأى عن الامور العسكرية المنظمة ، وبما ان الدولة حالت بينهم وبين الانخراط في السلك العسكرى ، لذا ركن الناس الى الحياة المدنية الرتيبة (٥) . وسبب آخر تمثل في خوف الناس - في تلك الفترة - من جيوش نابليون من ناحية ، وفي عدم قدرة الدولة العثمانية في التأثير على السكان للمشاركة في اى حرب او في اى مكان تريده الدولة من ناحية اخرى وبهذا المعنى بين الشهابي موقف الناس من مراسيم الدولة بصدد الحملة الفرنسية قال : " فلما وصلت فراميين السلطان ما احد انتبه من المسلمين لضعف العثمانلي وخوفا من الافرنج " (٦) . وهناك سبب ثالث ربما كان اهم الاسباب وهو ان الناس قد تعودوا ان لا يدافعوا الا عن بلدهم ، ولا يهمهم ما يقع للبلدان الاخرى ، حتى لو كانت مجاورة لهم .

---

(١) سجل ٦ ، ص ٣٥٨ .
(٢) نفس السجل ، ص ٣٥٨ .
(٣) نفس السجل ، ص ٣٦٠ .
(٤) نفس السجل ، ص ٣٧٠ .
(٥) عوض : ص ١٤٦ .
(٦) الشهابي : تاريخ احمد ، ص ١٢٩ .

ورأى الناس - في تلك الفترة - انه ليس من واجبهم الاشتراك في صد عدوان وقع على اخوان لهم في بلاد غير بلادهم ، ولو كانوا جيرانا لهم . وهذا يشير الى ضعف الوازع الديني في نفوس الناس . ووضح هذا الاتجاه بصورة جلية في مرسوم السلطان الى سكان بلاد الشام بخصوص الجهاد ضد نابليون " ... ولا يقولن احد منكم اذا وقع فساد بغير بلده من اشقيائها وارذالها دفع هذا لا يلزمنا لكونه في غير بلدنا وبعيد عنا واللازم عليكم كلكم ان تباشروا من غير توان ولا تكاسل في دفعه ورفعه " (١) .

لم يفكر السلاطين العثمانيون قبل عهد السلطان سليم الثالث ١٢٠٤/ ١٧٨٩ - ١٢٢٢/ ١٨٠٧ بادخال ابناء البلاد في الجيش العثماني ، ولكن الدولة العثمانية ما لبثت ان عدلت عن ذلك ، وانتهجت سياسة جديدة في تجنيد الناس وحملهم بالقوة على الانخراط في السلك العسكري . وكان ذلك بعد قضاء السلطان محمود الثاني على الانكشارية سنة ١٢٤٢/١٨٢٦ (٢) .

وقد اورد الدبس في كتابه كيف تم القضاء على الانكشارية فقال : " صمم السلطان محمود الثاني على ادخال النظام الجديد فجمع اعيان المملكة وكبار ضباط الانكشارية في اوائل ١٨٢٦ وخطب بهم سليم محمد باشا الصدر الاعظم مبينا ما آلت اليه حال الانكشارية من الانحطاط ولزوم ادخال النظام العسكري في وجاقاتهم (٣) . فصوب الحاضرون رأيه وافتى المفتي بجواز العمل ومعاقبة كل مخالف ، وحاول الانكشارية التمرد الا ان السلطان محمود قضى عليهم ، واصدر الاوامر الى جميع الولايات بابادتهم واخذ السلطان ينظم الجيوش بهمة لا يعتورها ملل " (٤) . وأسس السلطان محمود الثاني النظام الجديد وسماه " العساكر المحمدية المنصورة " (٥) .

---

(١) العطار : ج ١ ، ص ٢٤٧ .
(٢) كرد علي : عمران دمشق ، المقتطف ، م ٢٦ ، سنة ١٩٠١ ، ص ٦٩٢ .
(٣) الوجاق : هو اللواء . رسل : ص ١٤٦ .
(٤) الدبس : ج ٨ ، ص ٦٢٧ ، حليم : ص ١٩٩ .
(٥) غرايبة : سورية ص ٢٥ .

نصت اصلاحات السلطان محمود العسكرية على فرض نظام التجنيد الاجباري في بلاد الشام ، فتذمر منه الناس ، واخذ بعض المجندين يفرون من الجيش . فرأت الدولة تقييد حركتهم ، ومنعتهم من السفر من مكان الى اخر الا بتذكرة (اشبه بجواز سفر) موقعة من المحكمة الشرعية " واما بغير التذاكر فلا احد يتوجه من بلد الى غيره ولا تدعوا احدا يتوجه من نابلس الا بتذكرة من طرف الشرع الشريف على الوجه المشروح "(١) . ثم طلبت الدولة من جميع السكان في منطقة نابلس عدم التنقل الا بتذكرة ، وشددت المراسيم على تنقل العساكر بصورة خاصة . ووزعت الدولة ثلاثة وعشرين ختما على ولاية الشام ، وستة عشر ختما على ولاية طرابلس وطلبت وجوب ايجاد ختم في كل محكمة (٢) .

توقفت خطط الدولة العثمانية بشأن التجنيد في بلاد الشام سنة ١٢٤٦ / ١٨٣٠ ، بسبب مجيء حملة ابراهيم باشا على الشام واحتلاله لها . على ان ابراهيم باشا وقد اراد ايجاد دولة بالمفهوم الحديث ، سار بنفس الخط الذي سار به والده في مصر من قبل ، فرض ابراهيم باشا التجنيد الاجباري على السكان بصورة اكثر حزما من الدولة العثمانية ، حتى انه قرر تجنيد اولاد شيوخ جبل نابلس ، وهذا واضح في المرسوم التالي : " قدوة الاماجد سليمان افندي ان الخمسة عشر نفرا المرقومين اعلاه اولاد مشايخ نابلس اقتضت ارادتنا الحاقهم الى ضابطان غارديان الاى الثالث بيادة فالمراد حال وصول امرنا هذا اليكم تبادروا بضبطهم وارسالهم الى طرفنا دون اعاقة "(٣) . وفيما يلي اسماء اولاد مشايخ جبل نابلس الذين طلب ابراهيم باشا تجنيدهم في سنة ١٢٥٥ / ١٨٣٩ .

ناحية وادي الشعير

١ ياسين بن الشيخ حمادة

١ موسى بن الشيخ مرعي عبد الفتاح

---

(١) سجل : ٨ ص ٤٠٠ .

(٢) سجل : ٨ ص ٤٢٦ .

(٣) رستم : الاصول ، م٥ ص ٢٤٤ .

ناحية بني صعب

١ عبد الله بن الشيخ يوسف الجيوسي

ناحية جماعين

١ مصطفى بن الشيخ احمد الخواجه
١ محمد بن الشيخ محمود الحمد

ناحية مشاريق البيتاوي

١ عبد الرحمن بن الشيخ سليمان
١ محمد بن الشيخ عمر العديلي

الشعراوية الغربية

١ محمد بن الشيخ عبد الرزاق الحمدان

الشعراوية الشرقية

١ صالح أخ الحاج مصطفى العبد الله
١ محمد بن الشيخ علي الموسى
١ عبد الرحمن بن محمد الحمدان
١ عبد الحليم بن الحاج عساف
١ محمد بن ابراهيم الصالح
١ احمد بن الحاج حسن كمال من وجوه نابلس
١ احمد بن الشيخ عبد الرحمن زيد من وجوه نابلس (١) .

وخلال الثورة التي اندلعت في نابلس ، كان ابراهيم باشا اذا القى القبض على بعض الثوار يختار الصالح منهم للجندية ، والباقي اما ان يعدمهم او يطلق سراحهم (٢) . وقد ادت سياسة ابراهيم باشا هذه الى تذمر الناس منه وقيام اضطرابات كبيرة في بعض المناطق . تماما كما تذمر الناس في مصر

---

(١) رستم : الاصول ، م ٥ ، ص ٢٤٣ - ٢٤٤ .
(٢) سجل : ١٢ ، ص ١٢٣ .

من سياسة ابيه محمد علي باشا " وكثير من المصريين ذرّوا الزرنيخ في عيونهم لكي يفقدوا بصرهم تخلصا من الخدمة العسكرية ومنهم من قطع سبابة يده اليمنى او قلع اسنانه وبتر ذراعه ، ومئات من الفلاحين هربوا الى سورية فرارا من الجندية "(١) .

وتنفس الناس الصعداء ، حينما استعادت الدولة سيطرتها على بلاد الشام ظنا منهم " ان الحكم العثماني سيكون كما عهدوه من قبل رخوا سهلا " (٢) في اجراءاته واوامره . ولكن الدولة خيبت ظنهم فقامت بتطبيق اصول نظام التجنيد الاجباري الذي اعلنه " خط كلخانه " سنة ١٢٥٥/١٨٣٩ " ان الجندية فريضة على ذمة الاهالي وان اعطاء العساكر لاجل محافظة الوطن هو من فرائض ذمة الاهالي" (٣) واضاف الخط " ولكن الجاري للآن هو عدم النظر والالتفات الى عدد النفوس الموجودة في البلدة ، بل يطلب من بعض البلدان زيادة عن تحطها ومن بعض البلدان انقص مما تتحمل ، وهذا فضلا عما فيه من عدم النظام فانه موجب لاختلال موارد منافع الزراعة والتجارة واستخدام العساكر الى نهاية العمر أمر مستلزم لقطع التناسل ، فعلى تقدير طلب انفار عسكرية من كل بلد يلزم وضع وتأسيس اصول مستحسنة لاستخدام العساكر اربع او خمس سنوات بطريقة المناوبة " (٤) .

جعلت الدولة جمع الجنود يتم بالقرعة الشرعية ، حيث يدعى الافراد الذين هم في سن القرعة بين ٢٠-٢٥ سنة ، فمن اصابت اسمه القرعة صار عسكريا ومن لم تصبه عاد الى وطنه لسابق اعماله . وعينت الدولة المدة التي يحضر فيها المكلفون ، ومن لم يحضر كتب اسمه في العسكرية من غير قرعة . ومن اصابته القرعة عاد الى بلده مدة عشرين يوما لقضاء مصالحه قبل ان يلتحق بالسلك العسكري ، واذا كان للرجل اربعة او خمسة اولاد واصابت القرعة واحدا او اثنين منهم اخذ الاثنان ، اما اذا اصابت الخمسة فيؤخذ اثنان لا غير . وللاب ان يقدم عوضا

---

(١) رستم : محمد علي باشا والسلطان محمود ، المقتطف ، ٦٦ ، ص ٤١٥

(٢) غرايبة : سورية ، ص ٥٨ .

(٣) عوض : ص ١٤٦ .

(٤) فريد : ص ٢١ .

عن الابن الذى اصابته القرعة الشرعية (١) واورد " الابيارى " تسعة شروط لصحة البدل او العوض (٢) . وقد تساهلت الدولة في اقتضاء البدل العسكرى فجعلته على اقساط او ما شاكل ذلك (٣) .

اعفى النظام من العسكرية من كان وحيد ابويه ، فقد جاء في اعفاء الشيخ محمد منيب افندى بن الشيخ عبد الواحد افندى الخماش سنة ١٢٨١ / ١٨٦٤ ما نصه " . وبما ان الشيخ محمد منيب افندى من سلالة العلما الكرام ومن طلبة العلم الشريف وخارج من حد دخوله في سلك العسكرية الشريفة حيث انه وحيد اليس لوالده المومى اليه معين لسواه وان والده المرقوم قد دخل في سن الشيخوخة " (٤) . وأعفى النظام كذلك المدرسين من التجنيد ، فقد اعفى الشيخ عباس افندى ابن الشيخ محمد شحادة الخماش ، لكونه مدرسا بجامع النصر بنابلس سنة ١٢٨١ / ١٨٦٤ وجاء في وثيقة تعيينه بوظيفة التدريس : " وبما ان الشيخ عباس ليس داخلا في سلك العسكرية الشريفة حيث انه من المدرسين للتدريس العام " (٥) واعفى من الخدمة العسكرية المرضى شريطة اعادة الكشف عليهم كل سنة مدة خمس سنوات (٦) . وعينت الدولة اطباء للكشف على من يتحايلون للتهرب من الجندية (٧) . واتضح ذلك من وثيقة ذكرت ان سعيد بن باكير من سكان قرية " بيت ايبا " قد تم الكشف عليه من قبل ثلاثة اطباء وبحضور النائب الشرعي ، وتبين من الكشف ان سعيد بن باكير " ليس في بدنه ولا في ساير اعضائه جراحه وقد قررنا جميعا ان النفر المذكور ذو احيلة لعدم وجود تغير في اعضائه " (٨) . كما اعفى النظام كذلك غير المسلمين من الخدمة العسكرية وفرض عليهم بدلا نقديا . (٩)

---

(١) الابيارى (ابراهيم) : مصباح السارى ونزهة القارى ، ج ١ ص ٧٥ .
(٢) نفس المصدر : ص ٧٥ .
(٣) مجلة الهلال ، السنة الثانية ١٨٩٤/١٨٩٥ . ص ٧١٤ .
(٤) سجل ١٣ : ق ٢ ، ص ١٢٩ .
(٥) نفس السجل : ص ١٢٩ .
(٦) المظم (حقي) : تاريخ حرب الدولة العثمانية مع اليونان ، ص ٢١ .
(٧) سجل ١٤ : ص ١٦٦ .
(٨) نفس السجل : ص ١٦٦ .
(٩) رستم : لبنان ، ص ١٣٧ .

ظل الناس في نابلس وغيرها من المناطق يتخوفون من الخدمة العسكرية الجديدة ، ومرد ذلك يعود الى القرون الطويلة التي عاشها الناس بعيدين عن المشاركة الفعلية في تحمل اعباء الحكم (١) ، وتعودهم على الحياة المدنية ، ونسيانهم الروح العسكرية . كما ان كثيرا من المجندين كانوا يموتون خارج بلادهم ، وقليل منهم من عاد الى وطنه (٢) . ولذلك انتشرت عادة بين الاهالي في منطقة نابلس وهي ان من يدخل سلك العسكرية لا يجد من يزوجه ابنته ، واذا كان متزوجا طلقت امرأته ، وزوجت لشخص آخر وكان هذا من دواعي التهرب من الجندية بأية وسيلة . وتبين هذا من المرسوم الاتي : " ... صار التحقيق والاستخبارات ان الاشخاص الذين يكونوا خاطبين بعض البنات فبأسباب دخولهم في سلك العسكرية يعطونهم الى خلافهم وانه بحسب النظام فالذى يعطي ورقة رديف يقال له صرت رديف فلا نعطيك مخطوبتك وايضا الاشخاص الذين يكونون في سلك العسكرية فالبعض من عديمي المذهب والادب يحضرون ويفيدون ان رجالهن توفون ويزورون مكاتيب تأكيدا لخباثاتهم ، وبهذه الصورة يزوجون اولئك الحريم الى خلاف ازواجهم وان هذه يؤدى الى فرار الاشخاص الذى في سن العسكرية" . واوصى المرسوم بضرورة تأمين الذين يدخلون في الجندية " ومعاونة عيالهم واولادهم وتعلقاتهم مع ضرورة حمايتهم من طرف الحكومة " (٣) .

عدّلت الدولة من نظام التجنيد ، فاصبح العسكر على ثلاثة انواع :
الاول : نظامي وهو من يبقى في الخدمة العسكرية باستمرار ، والثاني : رديف وهو الذى خدم في الجيش مدة خمسة اعوام ثم خرج ، ورجع الى وطنه لكنه بقي تحت الطلب اذا دعت الظروف . ومدة الرديف كانت سبع سنوات (٤) ثم انقضت الى سنتين (٥) واستقرت في نهاية القرن التاسع عشر على ثماني سنوات (٦) . واوجدت الدولة نوعا ثالثا دعي " بالمستحفظ " مدة ستة سنوات وهذا النوع " خالص من كافة قيود وعلائق العسكرية " (٧) ولكنه قد يستدعى في الحالات الضرورية جدا (٨) .

(١) عوض : ص ٧٢ ، ١٠٥ .
(٢) سجل : ٢٠ ، ص ١٣٧ .
(٣) سجل : ١٢ ص ٧٢ ؛ (٤) الابياري : ج ١ ص ٧٥ .
(٥) سجل ١٦ : ص ٣٨٢ .
(٦) العظم ، ص ٢٢ .
(٧) سجل ١٦ ، ص ٣٨٢ .
(٨) الحصرى (سناطع) : البلاد العربية والدولة العثمانية ص ٢٥ .

خصصت الدولة لسورية قوة من الجيش العثماني دعي بالجيش الخامس " بشنجي اورد و " ثم غيّر اسمه الى الجيش الرابع ، وضم هذا الجيش فرق مشاة وخياله ، وكل فرقة ضمت لوائين ، وتكون كل لواء من اربعة آلايات ، وضم الالاي ١٦ طابورا (١) وكان يقيم في نابلس في نهاية القرن التاسع عشر طابور الوحدة الخامسة (٢) من الالاى ٧٠ من اللواء ٣٥ من الفرقة السابعة عشرة . ووجد في نابلس من الخيالة الالاى ٢٥ من اللواء الثالث عشر من الفرقة الخامسة (٣) ، ووجد من الرديف الطابور الثالث (٤) .

لم يكن الوضع الامني في نابلس في القرن الماضي وعلى الاخص في النصف الاول منه ، يدعو الى الاطمئنان ولا شك ان حالة الامن تتأثر بقوة الدولة وبضعفها ، ولما لم يكن للدولة العثمانية قوة وهيبة في نفوس الناس ، لذا كان الامن شيئا عزيزا . لم يكن السفر والتنقل بالامر الهين او السهل (٥) . " ولذا كان المسافرون يتألفون في جماعات مسلحة اذا ارادوا السفر الى احدى المدن او الى جهة من جهات البلاد ليمكن رد المهاجمين " (٦) .

ازدادت حالة الامن سوءا حينما وقع الغزو الفرنسي لفلسطين ، وحاصر نابليون عكا " ففلت الحكم بالشام وبرّها حتى ما عاد امان لا على عرض ولا على مال " (٧) . وتبيّن سجلات المحكمة الشرعية في القرن الماضي - اضطراب الامن في تلك الفترة ، وصل الى حد " خطف البنات من محلاتهم والذهاب بهن الى محلات اخرى بحجة الزواج " (٨) . وأكدت كافة المراسيم المرسلة الى متسلمي نابلس "بضرورة تأمين ابناء السبيل (٩) ، وتسليك الطرقات ومجازاة المعتدين (١٠) ، ووقاية اهل العرض

(١) غرايبه : سورية ، ص ٦٧ ، ٦٨ .
(٢) سالنامة بيروت ، ص ٢١٨ ، ٢٣٦ .
(٣) غرايبه : سورية ، ص ٦٧ ، ٦٨ ، الحصرى : البلاد العربية ، ص ٢٥٤ .
(٤) سجل ٢٠ ÷ ص ١٣٧ .
(٥) كنفليك : ص ٨ .
(٦) موءلف مجهول ، ص ٢٧ .
(٧) الدمشقي : تاريخ حوادث المشرق ، ١٥ ص ٥٩ .
(٨) سجل ١٠ : ص ٢٣٧ .
(٩) سجل ١٠ : ص ١٤١ .
(١٠) نفس السجل : ص ١٤١ .

من شرور الاشقياء والفجرة " (١) . واشارت السجلات الى عدد من حوادث القتل والجرائم المختلفة . فقد رفع احد الاشخاص من قرية " اودله " دعوى على عدد من الافراد من قرية " بيتا " واتهمهم بقتل اخيه (٢) ، واعتدى على شخص آخر اثناء سفره من قرية الى اخرى (٣) ، والطريف ان شخصا خرج الى قرية " حواره " ونزل ضيفا عند احد الناس ، فاعتدى عليه شخصان بحجة ان لهما بذمته دينا ، ومات ذلك الشخص من شدة الضرب (٤) . وسافر شخص من قرية برقا - من ناحية وادى الشعير - الى قرية جبع - من مشاريق الجرار - فقتل في احد شوارع القرية (٥) . وهناك اشارات لحوادث قطع الطرق في منطقة دير الغصون (٦) .

ولقد تضافرت عدة عوامل اثرت على الوضع الامني في جبل نابلس منها : الخلافات المحلية بين العائلات المتنافسة على السلطة في جبل نابلس ، كالخلاف بين آل طوقان وآل جرار وبين آل عبد الهادى وآل طوقان ، وبين آل جرار وآل عبد الهادى (٧) . وكان لكل عائلة اتباع وموئيدون ، اى كان عندهم بما يسمى اليوم بالتكتلات او الاحزاب . وهذا ما تحدث عنه مرسوم والي القدس الى سليمان بك طوقان متسلم نابلس سنة ١٢٦٢ / ١٤٨٥ " ... المنهي اليكم غير خافي فيما مضى وللان بيت جرار وبني عبد الهادى ومن تابعهم وسامعهم من مشايخ وطوائف نواحي سنجقي نابلس وجنين من العداوة والحروب وحركات الفتن وسلب الاموال وتلف الارزاق حتى علك من الفريقين جملة نفوس وتلف هل قدر اموال وفقدت الراحة والامنية بين اهالي تلك الجهات " (٨) . وثمة سبب آخر عمل على فقدان الامن وتمثل في ضعف الدولة العثمانية ، وضعف ولاتها في السيطرة التامة على المناطق التابعة

---

(١) سجل ١٠ : ص ٣٨٦ .
(٢) سجل ١٣ : ١ ص ٢٥ .
(٣) سجل ١٢ : ص ١٤٦ .
(٤) نفس السجل ، ص ٣٩ .
(٥) سجل ١٤ ، ص ١٢٤ .
(٦) سجل ٨ : ص ٤١٠ .
(٧) سجل ١٠ : ص ٢٣١ .
(٨) سجل ١٠ : ص ٢٣١ .

لهم.وربما طبيعة نابلس الجغرافية وانغلاقها وعدم وجود طرق مواصلات سهلة بينها وبين قراها كل ذلك ساعد على عدم استتباب الامن فيها . ولكن اهم سبب عمل على اضطراب حبل الامن هو انتشار الاسلحة بين الناس وانتشار عادة حملها (١) .

ذاق الناس طعم الامن والاستقرار ، حينما دخلت نابلس تحت سيطرة ابراهيم باشا المصرى وساد الامن في بلاد الشام عامة في اقطارة وعبر طرق القوافل في الصحراء (٢) فقد عمل ابراهيم باشا بكل قوة وحزم على استتباب الامن فمنع عسكره من التعدى على الناس ، وحذّر زعماء نابلس من التغاضي عن تصرفات الجند المصرى ، اتضح هذا من مرسومه الى الشيخ سليمان الحسين العبد الهادى متسلم نابلس سنة ١٢٥٠/١٨٣٤ " ... انما كان احد من العساكر يتعدى على احد من المشايخ ويأخذوا دارهم واشيا تساعدهم وتقولوا هاد ول عساكر تساعدوهم ولم تعرضوا لنا عن ذلك عليم الله اعاملك معاملة ردية في حقك اعلموه واعتدوه" (٣) . ووجه في نفس الوقت تحذيرا شديدا الى الاقطاعيين والمتنفذين وأتباعهم من التعدى على الناس ، وبيّن ان من يتعدّ " فقصاصه اربع سنين في اللومان " (٤) ، من دون عفو ولا مسامحة" (٥) وشرح لهم ان هناك جنودا اعتدوا على الرعايا في بلدة الناصرة فضربوا ثلاثمائة كرباج ووضعوا في السجن (٦) . وقام ابراهيم باشا بتوزيع الخيالة على انحاء جبل نابلس لتثبيت الامن فيه (٧) .

ادرك ابراهيم باشا ان كل هذه الاجراءات قد لا تؤدى الى الهدف المنشود ، طالما ان معظم السكان مالكون للسلاح وحاملون له ، ولذا اعلن عن عزمه على نزع السلاح وتجريدهم بالقوة . واعتبر ابراهيم باشا حمل السلاح" اعظم درجة من المصاوة" (٨) .

---

(١) سجل ١١ : ص ٥٨ .
(٢) زيادة : ص ٨٢ ، لوتسكي ، ص ١٣٣ .
(٣) رستم : الاصول ، م ٣ ، ٤ ، ص ١٣٧ .
(٤) اللومان : هو السجن .
(٥) سجل ٩ : ص ٣٩١ .
(٦) نفس السجل : ص ٣٩١ .
(٧) رستم : الاصول ، م ١ ص
(٨) سجل ١٢ : ص ٢٤٤ .

فامر اولا بعدم حمل السلاح واظهاره (١)، ثم بدأ بجمعه، فكان ذلك احد الاسباب الهامة وراء الثورة التي قامت ضده في نابلس وخارجها. وارسل ابراهيم باشا الى سليمان عبد الهادى متسلم نابلس ١٢٥٠/١٨٣٤ امره بجمع السلاح الموجود في المنطقة وظهر ان المتسلم تهاون في الامر، او لم يستطع تنفيذ امر الحاكم المصرى. فارسل اليه ابراهيم باشا يوبخه ويعنفه، : "... شيخ سليمان السلاح السلاح عليم الله اعاملك معاملة اخرى في هذا الخصوص وفي هذا كفاية" (٢). وقام رجال ابراهيم باشا بتجريد السكان في نابلس وقراها من السلاح، فجمعوا من نابلس وحدها ٥٦٠٠ بندقية، وما جمعه ابراهيم باشا لم يكن هو كل الموجود بدليل ان بعض اهالي القدس توجهوا بعد ذلك الى منطقة نابلس واشتروا منها اسلحة. ولما علم ابراهيم باشا بذلك امر بالبحث عن الذين باعوا واسماء قراهم (٣).

عاد الناس الى سابق عهدهم من نبذ الطاعة والاخلال بالامن عندما استعادت الدولة العثمانية سلطتها على بلاد الشام اثر خروج ابراهيم باشا منها حتى امكن القول: "انه لا يوجد ثم ظل للامن على الحياة والاملاك وكل شيء يدل على عودة حالة الفوضى الى هذه البلاد" (٤). واستأنف اعراب البادية غاراتهم "وظلت المدن منكمشة وراء اسوارها" (٥). وحاولت الدولة العثمانية اتباع الطريقة المصرية بمنع الناس من حمل السلاح، ونقله من مكان الى آخر، واستثنت بعض المستخدمين على ان يكون ذلك بموجب رخصة من طرف الحاكم. وهدد الوالي العثماني انه اذا لم تطبق هذه التعليمات " فسيأتي بجيشه ويؤدب مسببي الحوادث" (٦). ومع ذلك فقد عاشت نابلس فترة من الاضطرابات عدة سنوات ولم تهدأ الاحوال الا في عهد حاكمها الحازم يوسف ضيا الذى اخمد الاضطرابات وفرض هيبة الدولة في جبل نابلس فخيّم الامن والهدوء. وهذا ما بيّنه اسعد عبود بقوله: "وأمّا بلاد نابلس والسامرة، فقد كانتا منذ بضع سنوات مسرحا للشقاوة والثورة على الحكومة التركية، اصبحتا اليوم راتعتين في بحبوحة الراحة تحت ادارة رجل حازم ليس لديه سوى ٣٠٠ جندى الا وهو "يوسف بيك" (٧).

---

(١) رستم : الاصول م ٥ ، ص ٦٠ - ٦١ .

(٢) رستم : الاصول ، م ٢ ، ص ١٣٧ .

(٣) نفس المصدر : ص ١٣٧ .

(٤) كرد علي : خطط ، ج ٣ ، ص ٦٩ .

(٥) زكريا (وصفي) : عشائر الشام ، ص ١١٩ .

(٦) سجل ١١ : ص ٥٨ .

(٧) عبود : ص ٩٢ .